

منهاج الدعوة إلى الإسلام في العصر الحديث

يقلم

مقداد يالبن

تدوينة

محمد محمد عبد اللطيف بن عيسى

الدكتور عبد الحكيم محمود



مَنْهَاجُ الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ

تأليف

مِقْدَادُ يَا لِحْن

تقدّمه

محمد محمد عزالاظميف اربل خطيب

الدكتور عزيز الخليم محمولى

المطبعة المصيرية ومكتبتها

تأسست عام ١٩٦٤

سوق الأوقاف بأرض شريف. شارع عبدالعزیز

تليفون ٩٠٠٥٣٨

الطبعة الأولى

١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م

حقوق الطبع والنقل محفوظة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أُرْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ
الْحَسَنَةِ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ؛ إِنَّ
رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ
وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ!

إهداء

إلى روح والدى العزيزين أهدى هذا الكتاب

إلى أمي الرؤم : لقد حرمني القدر منك بعد أن حبوتني بحنانك وعطفك ،
وتركت صورتك ماثلة في عيني وفؤادي ، ولا زالت شمائمك الإسلامية : من حسن
العشرة ؛ وحب الخير ، وطيبة القلب ، وسلامة الفؤاد ؛ عالقة بمخيلتي .

نعم يا أمه : لقد حرمني القدر منك وأنا صغير لا أذكر منك سوى هذه
الصورة ، وصورتك عند ما كنت تجتمعيني مع أشقائي وأقراني دائماً ، وأنت
بيننا تقدمين لنا ما يبعث في نفوسنا البهجة والسرور !

هذا كل ما تركته من ذكريات عندي ، ثم ذهبت وتركت القلب الجريح ، وفي
الفؤاد والعين مسكنك الفسيح !

وللى والدى العزيز ، إلى من يعود إليه فضل تربيتي وتوجيهي الوجهة الإسلامية ؛
لقد علمتني قراءة القرآن وأنا صغير ، وإن كنت لا أفهم منه شيئاً ؛ لاختلاف
اللسان ، وعند ما كنت أتساءل عنه : كنت تجيب تسأولاتي بأنه كلام ربنا ،
يخاطبنا به ، ويرسم لنا فيه طريق الحياة ؛ الذي يريد منا أن نسير عليه .

وغرست في نفسي حب الإسلام ، والامثال لأوامره ؛ لأنه طريق السعادة
في الدارين ؛ ولكن كان يضايقتني : عدم فهمي للقرآن ؛ كما كان يضايقتني هجوم
بعض الناس على الإسلام ، والتحلل منه ، والابتعاد عنه . فكنت أضيع من ذلك
ذرعاً ، فنشأ من هذا وذاك دافعان في نفسي : دافع لفهم القرآن ، ودافع للذود
عن الإسلام ، وكان الأول سبباً لخروجي إلى البلاد العربية ؛ لتعلم اللغة العربية .
وكان الثاني سبباً لإخراجي هذا الكتاب ؛ لأبين فيه : لماذا يخرج الناس على تعاليم
الإسلام ؟ ولماذا يهاجمه أولئك ؟ وكيف يعالج هذا وذاك ؟

والدى العزيز : كم كنت تتمنى أن أعود لأفهمك ما تقرأه من القرآن ؛ وكم كنت أتمنى أن ترى ثمار غرسك ، وثمره جهودك ! وإذا بك — وكل منا فيما يتمناه — تغادر هذه الحياة ، وأفاجأ بهذا الخبر الأليم !

والآن يا والدى العزيزين . لا أجد من قول أقوله لكما سوى ما قاله تعالى
« وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ، !

مِقْدَارُ يَابِجِن

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

تقديم بقلم

الدكتور محمد بن عبد الوهاب

بِسْمِ اللّٰهِ ، وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى الرَّحْمَةِ الْمَهْدَاةِ : مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللّٰهِ ، عَلَيْهِ وَعَلَىٰ مِنْ وَاٰلِهٖ : اَفْضَلُ صَلَاةٍ وَاَتَمُّ تَسْلِيمٍ !

الإسلام دين الله ، وشريعته الخالدة ، كلف الله بها البشرية بعد أن بلغت البشرية دور النضوج ، فكانت للبشر خاتمة الشرائع .

وكانت بما تحمل من أسس سليمة ودعائم متينة مكينة ، وأصول قوية قويمية ، وبما تمتاز به من خصائص وركائز وسمات ، كانت بذلك كله شريعة عالمية إنسانية ، ودعوة عامة للبشر والأجيال المتعاقبة من مبعث محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم الدين .

فلا جرم أن كان من الواجب أن يفتش دين الله في دنيا الناس حتى يعم الأرجاء ويستظل بظله البشر في جميع المناحي والأنحاء .

ولا جرم أيضاً أن كان في عنق المسلمين أمانة ثقيلة بالنسبة لعالمية الإسلام ، ولحتمية الدعوة إليه تلك الدعوة التي لا تقتصر على زمان أو مكان ، ولا على دولة أو هيئة أو بيئة أو جماعة ، بل هي قدر مشترك ؛ لكل مسلم في هذا القدر دور ونصيب ليؤدي رسالة كاملة في المجال المتعددة للدعوة .

فهناك الدعوة إلى الإسلام بين المسلمين أنفسهم ، لتجلية الدين الصحيح ولإبرازه في إظهاره الإلهي الصافي السليم .

وهناك الدعوة إلى الإسلام في الاصقاع والبقاع التي لا تعرف عن الإسلام

إلا طقوساً وشكليات ، فيرشدكم الدعوة إلى الجوهر ، وإلى الأساس ، وإلى الأصول والأركان .

ثم هناك الدعوة إلى الإسلام في أوروبا ؛ حيث الإلحاد والوجودية والعقائد المنحرفة ، والفلسفات الزائفة .

ثم هناك الدعوة لمناهضة أعداء الإسلام الذين جندوا طاقاتهم ورسدوا إمكانياتهم ليطفئوا نور الله ، وليطمسوا معالم الطريق الإسلامي والنهج المحمدي .

ومن أجل هذا كان لا بد أن يكون لنا نحن المسلمين مخطط شامل منظم ، ومنهج مدروس نواجه به التحديات ، وندعو به أهل هذا العصر بالأسلوب الذي يقتنع به أهل هذا العصر .

وكتاب « مناهج الدعوة إلى الإسلام في العصر الحديث » الذي يقول مؤلفه الأستاذ مقداد الجلي في مقدمته : « هدف من هذا الكتاب تجديد التفكير الإسلامي وإحياء روح الإسلام في نفوس المسلمين ؛ ولتحقيق هذين الهدفين وضعت مناهجاً جديداً يتلاءم مع عقلية العصر الحديث »

والكتاب بهذا الهدف المحدد : يضع العالم على طريق الدعوة ويحدد الإطار الذي يجب أن يسير فيه الدعوة والهداة والمرشدون ، ثم استعرض بعد ذلك الوسائل التي يراها كفيلة بتنفيذ هذا المنهج .

ومن سمات هذا الكتاب : أنه جلي بعبارة مشرقة عدة جوانب هامة تناولت المبادئ الإسلامية وتحررها عما شابهها وشأنها ، كما دافع عن بعض القضايا الإسلامية بمنطق المحامي البليغ ، وبراعة المدافع الذي تسليح بالحق ، وزانه بيان رائع وبرهان صادق وحجة بالغة .

أما فيما يتعلق بما كتبه السيد المؤلف عن الطرق الصوفية ، فإن نظرنا إلى هذا الموضوع تختلف اختلافاً جذرياً عن نظرة الكاتب ، وذلك أن الطرق هداية إلى الله ، وأخذ بيد المريدين إلى سبيل الله . ومشايخ الطرق قوم خبروا المسالك

وساروا في المعارج القدسية . فهم خبراء يهدون إلى الله ، وأدلاء في طريق الله ، وما من شك في أن الباحث المنصف المستقرى لمفاهيم الإسلام المستتبع لطرقه وطرائقه : يجد أن الإسلام في أسنى صورته ، وأبقى سبله ، وأصنى مقاصده : هو الصوفية . . الصوفية المبرأة من كل دخيل المنزهة عن الشوائب .

في ميدان السلوك المثالي نجد التصوف في القمة ، سئل أبو محمد الجريري عن التصوف فقال : « الدخول في كل خلق سنى ، والخروج من كل خلق دنى ،

وفي ميدان تكوين الشخصية الإلهية نجد أن التصوف هو الذى يشكل تلك الشخصية ويلون اتجاهها ويكون مقوماتها ، قال الإمام الجنيد ، وقد سئل عن التصوف فقال : « هو أن يملك الحق عنك ، ويحييك به »

وفي مجال العمل نجد التصوف خلاصة علم وعمل وجد وكد ، يقول الجنيد : « التصوف ذكر مع اجتماع ، ووجد مع استماع ، وعمل مع اتباع ،

التصوف جهاد ومجاهدة ، علم وعمل ، شريعة وحقيقة ، روحانية وصفاء ، كشف وإشراق . ثم هو في النهاية انقياد للحق وسلوك حق على الطريق إلى الله الحق .

إن في التصوف إيثاراً ، وقد سئل ذوالنون المصرى عن أهل التصوف فقال : « هم قوم آثروا الله عز وجل على كل شيء فأثرهم الله عز وجل على كل شيء »

وهو خصيصة لقوم تجردوا بما تكالب عليه البعض ، وعزفوا عما ركن إليه البعض من بهرج زائف ، وزخرف زائل ، وعرض عارض . . خصيصة لقوم جاهدوا أنفسهم أولاً ، ثم جاهدوا في الله فهداهم الله إلى طريقه (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) .

فهو إذن بكل هذه النواحي والمناحي : روح إسلامية كتبت للمجاهدين العاملين الذين أحسنوا العلم فأحسنوا العمل و (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة)

إن الطرق الصوفية وإن تعددت فهى في مجموعها طريقة ذات هدف واحد ، ومنهج متحد . . هدفها الله ، ومنهجها الدعوة إلى سبيل الله ، وغايتها أن

تأخذ بيد الأناسى فى طريق الله إلى الله ، والطرق ليست إلا سبيلا لهذه المثل
الروحية السامية .

وفى الكتاب صفحات صوفية فقد تحدث المؤلف عن موقف الإسلام من
الحياة الجسدية والروحية وساق من الأدلة والأحاديث ما قدمته الصوفية فى هذا
المجال من أن الإسلام : دين ودنيا ، وجهاد وجلاء ، وسعى وكد ، وأبو الحسن
الشاذلى رضى الله عنه ، كان فى أوائل الذين ذهبوا إلى المنصورة فى أيام الحرب
التي انتصر فيها المسلمون على الفرنج فى معركة المنصورة المشهورة .

والله نسأل أن يكتب لهذا الكتاب ما هو أهل له من ذبوع وانتشار وتوفيق ،
وبالله التوفيق ؟

الدكتور عبد الحكيم محمود

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

تقديم بقلم

محمد حبيب اللطيف

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين « محمد بن عبدالله » ،
الذي جاءنا بأفضل كتاب وأكمل دين !

وعلى آله الطاهرين ، وأصحابه الطيبين ؛ ومن تبع سنتهم ، وسار على طريقتهم
إلى يوم الدين .

أما بعد : فقد عرفني أحد أبنائي بمؤلف هذا الكتاب « الأستاذ مقداد يالجن » ،
وأخبرني أنه قد نوح من بلاده « تركيا » إلى سوريا راغباً في تعلم اللغة العربية ؛
ليتفهم بها القرآن الكريم ، ويتقن قراءته . فلم يجد في سوريا ما يشفي الغليل ؛
من اتهمال ما رغب في اتهماله ؛ وعلم أن الأزهر الشريف يهتم بما أراده من
دراسات ؛ فشد رحاله إلى مصر — المحيية إلى نفسه — فالتحق بالأزهر ، وأخذ
الشهادة الثانوية منه ، ثم دخل كلية دار العلوم بجامعة القاهرة فنال منها الليسانس ،
كما حصل على دبلوم التربية من كلية التربية بجامعة عين شمس .

وهو الآن في سبيل إعداد الماجستير في قسم الفلسفة الإسلامية وإعداد
« دبلوم ، أخرى في التربية .

هذا ولما انفردت بالتكلم معه : أعجبت بحديثه الممتلىء غيرة على الدين ،
و بمنطقه الواضح الفصيح ، وحجته الراققة الرائعة .

كما أعجبت بسمته وهدوئه ، الذي يخفي بين طياته ثورة عارمة ؛ على كل من
يحاول النيل من دينه الحق « الإسلام »

وكان أكثر إعجابي ؛ بما تميز به من إشراق نور أضفاه الله تعالى عليه ؛ لما يحمله قلبه الكبير من أعباء جسام ؛ لا تمت للحياة المسادية بسبب !

شأنه في ذلك : شأن من تقدمه من كبار المدافعين المصلحين ؛ الذين يترسم خطاهم ، ويسير على هديهم !

وهذا النور قليلا ما نراه على بعض الوجوه التي اصطفاها الله تعالى للدفاع عن دينه ، واختارها لنشر تعاليمه !

وقد سألته في إحدى مقابلاتي له : مريداً اكتشاف السبب ؛ فيما اكتسبه من علم غير مكتسب ، ومن إشراق لا يأتي وقت الطلب ، ولا يمنح إلا الخاصة الخاصة ؛ من خيرة المؤمنين وخلصائهم !

فظل يحاورني ويداورني ؛ وبعد طول لآي علمت أنه قد حظى وشرف برؤية سيد الخلق عليه أفضل الصلاة والسلام مرتين ، أطعمه في إحداها تيناً ، وضمه في الأخرى إلى صدره الشريف وبعد أن صلى به وبغيره عن حضر من المؤمنين رافقه فقال له الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه : لقد ضاع قلبي فبحث عنه ووجدته .

وهنا علمت أن النور قد جاءه من النور الأسنى ، والعلم قد جاءه من العلم الأسمى !

وقديماً قال سيدي محمد البكري رضى الله تعالى عنه ؛ من قصيدة طويلة :

ما أرسل الرحمن أو يرسل	من رحمة تصعد أو تنزل
في ملكوت الله أو ملكه	من كل ما يختص أو يشمل
إلا وطه المصطفى عبده	نبيه مختاره المرسل
واسطة فيها وأصل لها	يعلم هذا كل من يعقل !

وتيقنت أنه إنسان موهوب : سعيد في دنياه وأخراه !

فبدأت أحسده على ما آتاه الله تعالى من علم ، وأغبطه على ما وهبه من فضل !

ومن هنا أيضاً علمت سبب اهتمام العارف بالله : الدكتور عبد الحلیم محمود بأمره . وتقديمه لكتابه ، وإشادته بذكره .

ذلك لأن الدكتور عبد الحلیم محمود - جزاه الله تعالى خير الجزاء - يجند من بين تلاميذه وأبنائه ؛ قوة يدفع بها عن الإسلام والمسلمين عادية الإلحاد ، وغائلة المسادية ، اللتين فشتا في زماننا هذا فشواً ذريعاً مريعاً ، وأصبحتا قوة ضارية ؛ تكاد تعصف بالأخضر واليابس ، وتعود بالعالم إلى أسوأ عصور الهمجية والوحشية !

ذلك لأن الإنسان بلا دين يكبح جماح الشر فيه ، وبلا إيمان يمنحه الهدوء في حياته ، والطمأنينة عند مماته : هو إنسان يحسب من الأنعام ؛ بل وشر من الأنعام !

« أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون ،

والإنسان بلا رب يلجأ إليه ؛ فيرتقى في أحضان حنانه وعطفه ، ويمشوا عند أبواب بره ولطفه ، ويشق بوصول خيره وثوقه بنفسه : هو كالحیوان الهاجج الثائر ، الجريج الجائع ؛ في المهمه القفر ؛ حيث لاما ولا كلاً ؛ فيعتصر من دمه ليشبع نهمه ، ويعتصر من روحه ليرضى طمعه !

ولكن هيات هيات للجائع أن يطعم بلا مطعم ، وللخائف أن يأنس بلا مؤنس ، وللبیت أن يحيا بلا محي !

هيات أن تكتب لمثله الحياة ؛ بعد أن رفض كل مقوماتها ؛ فيسقط حينذاك : فريسة كفره بمولاه ؛ فتلقفه ملائكة العذاب بما هو أهله !

وحينئذ يؤمن بالله ؛ حيث لا ينفع الإيمان ، ويتمنى الرجعة حيث لا رجعة ، حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون ، ويقذف به في النار ، وبئس

القرار ؛ جزاء كفره وحقته ، وتجاهله لمولاه ؛ الذى خلقه منذ القدم ، وأنشأه من العدم !

بيد أن الدكتور عبد الحلیم محمود ؛ لم يرق له لمز مؤلف الكتاب لبعض الطرق الصوفية ، ووصفها بالانحراف .

والدكتور يعلم حق العلم : أن منها من انحرف فعلا عن جادة الصواب ، وعن الحدود التى رسمها الدين الحنيف .

ولكنه خشى أن تلوك الألسنة قوماً هم خيرة الخيرة ، وصفوة الصفوة !

هذا وقد احتاط الدكتور عبد الحلیم محمود فى تقديمه ؛ حيث قال فى وصف الصوفية :

« الصوفية المبرأة من كل دخيل ، المنزهة عن الشوائب ،

ولم يقصد المؤلف غير الدخلاء على الصوفية ؛ الذين لم يتنزهوا عن الشوائب .

وفى الواقع أن السادة الصوفية — رضى الله تعالى عنهم — هم هداة البشر ، وعلما الحقيقة : اتقوا الله فعلهم ، وخافوه فأرشدهم !

فهم نور الدنيا ، وضياء الحياة ؛ وأن الذين حادوا عن الطريقة المثلى ، وانسلخوا من المراتب العليا ، وانحرفوا عن المنهج السوى : ليسوا منهم ؛ ولو مشوا على الماء ، أو طاروا فى الهواء !

ومنذ القدم ؛ وسادتنا الصوفية عرضة للحن والامتحان ؛ فقد قتل منهم من قتل ؛ بتهمة الحلول ؛ ولم يكن ثمت سوى حلول نور الله تعالى فى قلوبهم لافى أجسادهم !

وشرد من شرد ؛ بتهمة وحدة الوجود ؛ وما كان ثمت سوى وحدة الوجود !

ولم يغفلوا طرفة عين عن ذكر مولاهم ، الذى أنشأهم ورعاهم ؛ حتى لافوه : راضين مرضيين !

ولإن نفس لاننس مالاقيه ولي الله الخلاج ؛ من عنت جلاديه ، وإيذاء شأنه !
ولن أعالى في مدح السادة الصوفية فأرتفع بهم عن مستوى الأنبياء — عليهم
الصلاة والسلام — كما تردى بعضهم في هذا الفهم الخاطيء ؛ حينما حيره مفهوم
تصرف الخضر مع موسى عليهما السلام . فتوهم علو قدر الولي على النبي !
ولن يصح بحال : ارتفاع قدر بعض المرسل لاهم ؛ على قدر الرسول : الذي
اصطفاه الله تعالى واختاره لهدايتهم !

ولا يزال بعض الامة الإسلامية — منذ نزول الإسلام — مصاب بغلو
الإفراط والتفريط !

فهاهو على كرم الله تعالى وجهه ؛ وقد أساء إليه قوم برفع قدره فوق قدر
المصطفى ، بل منهم من رفعه إلى مرتبة الألوهية !

وأساء إليه آخرون بأن حطوا من شأنه ونسبوا إليه ما هو منه براء !
حتى صحابة الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليهم : لم ينبج واحد منهم من
القدح ، وقد أمرنا باتباعهم والاهتداء بهديهم !

وقانا الله تعالى شر السقوط في الموبقات ، والوقوع في المهلكات !
والمؤلف حينما كتب ما كتب عن الصوفية ؛ كان متأثراً بما قاله الإمام القشيري
في رسالته ؛ عن انحراف بعضهم في زمانه .

ومتأثراً أيضاً بما علمه عن بلاده « تركيا » في عهد الغابر : حين كانت
الصوفية مدعاة للخمول والتكاسل . وكانت هناك أكثر من مائة طريقة ؛ كلها
تجانب الحقيقة ، وتجانف الدين . وكانوا يدفعون الناس دفعاً إلى الزوايا والتكايا ؛
وهذا — كما ترى — أبعد ما يكون من الإسلام والمسلمين !

ومما يدل على حسن نية المؤلف — حين كتب ما كتب عن الصوفية — أنه
صوفي بطبعه وفطرته ، صوفي بنفسه وروحه ، صوفي بصفاته وعبادته ، صوفي
بسلوكه وإخلاصه !

ونحن الآن قد صرنا إلى زمن شر مما سبقه من الأزمنة ؛ ورأينا رأى العين انحراف كثير من المسلمين ؛ ومنهم بعض الصوفية .

وهذا لا يعيب الإسلام من قريب أو بعيد ، ولا يعيب التصوف في ذاته ؛
الذى هو من صميم الدين .

وليس هذا دفاعاً عما قاله المؤلف ، ولا دفاعاً لما قاله الأستاذ الجليل ؛
الدكتور عبد الحلیم محمود .

ولكنها الحقيقة المجردة — التي ارتضاها الله تعالى لعباده — نعرضها لمن كان
له قلب !

والكتاب — كما أسماه مؤلفه — « مناهج الدعوة إلى الإسلام في العصر الحديث » ،
وكم تثقل الدعوة إلى الإسلام في العصر الحديث !

فقد أوشك الإسلام أن يعود غربياً كما بدا ! مصداقاً لقول الصادق المصدوق ؛
عليه الصلاة والسلام !

لكن المؤلف بين في كتابه هذا — الصغير الكبير — الدين الإسلامي بياناً
كافياً : كقانون علمي ، وكنهاج أخلاق ؛ صالح لكل زمان ومكان ، ولكل جنس
وبينة . ودعا إلى وضع المبادئ الإسلامية على طريقة التقنين .

وهي دعوة قد سبقه إليها — إن لم تخنى الذاكرة — الإمام الشيخ محمد عبده .
وقد ثار في وجهه علماء الأزهر في ذلك العهد ؛ وظللنا ردحاً من الزمن نعاني
الأميرين : من القانون الفرنسي « قانون نابليون » ، وفيه ما فيه من ترويح لشتى
الموبقات : كإباحة صناعة الخمر ، والاتجار بها ، وشربها ، وإباحة الزنا — بل
وتنظيمه — وانحراف عن كثير من مقتضيات المروءة والأخلاق !

وقد علمت أن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ؛ قد أعد العدة لعمل مثل
هذا التقنين .

وقد اتخذ المؤلف — في كتابه هذا — أسلوباً موقفاً في الدعوة إلى الإسلام وأسلوباً أكثر توفيقاً في دفع ماحاكه بعض خصوم الإسلام؛ الذين خرجوا عليه — احتساباً لوجه الشيطان — من مستشرقين، ومستعمرين، وفلاسفة، وأعداء مستترين، وآخرين مسافرين .

وكان دفعه لجميع هؤلاء بالحجة البينة، والبرهان الساطع القاطع؛ مما يجعل هذا الكتاب جديراً بأن يدرسه سائر المسلمين !

والمؤلف قد بين في كتابه هذا : الأسباب التي أدت إلى انحراف المسلمين، وأبعدتهم عن كتابهم المبين؛ والأسباب التي تعيد إليهم مجددهم التليد، وتبوسهم المكان الذي أعده الله تعالى لهم، والزعامة العالمية التي أهلهم لتوليها !

ولم يكن هذا الكتاب أول كتاب ألفه المؤلف : فقد أصدر كتباً عدة؛ لم يكتب لها الظهور بعد .

منها : « الشعوب الإسلامية ووسائل التقريب بينها » و « الإسلام دين الوحدة » و « البيت الإسلامي كما ينبغي أن يكون » .

وقد أخذ عن تأليفها أرقى الجوائز العلمية من المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

ومنها أيضاً : « الطريقة المثلى في التعلم » و « نشأة الطرق الصوفية » و « المجتمع المثالي كما يصوره القرآن » .

وهذه الكتب قد اطّلت عليها — اطلاعاً عابراً — فوجدت كل واحد منها شافياً كافياً في بابه !

أعانه الله تعالى على إتمام ما بدأه من جهد وجهاد .

هذا وقد علمت من زامل المؤلف — وقت تأليفه لهذا الكتاب — أنه كان يخلو بنفسه في الأماكن التي ليس فيها أنيس سوى الله تعالى، ولا جليس سوى النفس في ملكوته !

فقد كان يقضى الايام تلو الايام على سفح جبل المقطم ؛ ويظل متأملاً فيما وصل إليه حال المسلمين — وهم خير أمة ، على خير ملة — مفكراً في ربه ومولاه ، الذى كفله ورباه ؛ حتى يداهمه الظلام ؛ فيوقظه من سنته ، وينبهه من غفلته بعض الخفراء بهذه المنطقة ؛ ويقولون له : ألا تخشى على نفسك من اللصوص فى هذا المكان ؟ فيجيبهم : بأن ليس معه ما يسرق ، وأنه مع الله تعالى وفى رحابه .

وهذه — فى نظرى — أسمى مراتب الصوفية !

كما علمت أيضاً أن والد المؤلف : كان يحرص على عدم إرساله إلى المدرسة : خشية إفساد دينه ، وإبعاده عن الإسلام !
ولما أن شرعوا فى معاينة المتخلفين عن الدراسة : أرسله مكرهاً إليها ؛ مع تزويده بالنصح .

فكان المدرسون يمنعونه — فى ذلك الحين — من أداء الصلاة .

وكان من حرصه على دينه — كما عوده أبوه عليه رحمة الله — يقفز من فوق سور المدرسة ؛ ليؤدى واجب ربه فى وقته !

وبما هو جدير بالذكر أن المؤلف حينما اطلع على هذه المقدمة : أتانى — مدهوشاً مبهوتاً — متوسلاً ، راجياً أن أحذف منها ما أسبغته عليه من صفات ؛ يرى أنه غير أهل لها . ملحاً فى رفع ما أثبتته من رؤيته للرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه .

غير أنى رأيت عدم الاستجابة إلى رغبته ؛ مبقياً على ما كتبت ؛ مستنداً إلى هدى من تقدمنا من عليية القوم الذين نشروا فى مؤلفاتهم مراعاتهم الحسان : ليثبتوا صحة ما ذهبوا إليه فى هذه المؤلفات .

حتى أن بعضهم قد ذهب إلى أنه قد تلقى ما كتب عن الرسول — عليه الصلاة والسلام — مشافهة !

فلا ضير من ذكر ما ذكرناه .

هذا ولن أحاول — في تقدمتي هذه — الثناء على المؤلف ؛ فقد أثنى عليه
ربه تعالى بما وهبه من نور سكن قلبه ، وعلم سكن لبه ، وإيمان أنار وجهه !

والله تعالى أسأل أن يحشرنا جميعاً في زمرة خير خليقته ، وأن يظلمنا
بظلمة يوم لا ظل إلا ظله ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله
بقلب سليم ،

ابن الخطيب

تمهيد

كان هدفي من هذا الكتاب : هو تجديد التفكير الإسلامي ، وإحياء روح الإسلام في نفوس المسلمين ؛ ولتحقيق هذين الهدفين وضعت منهاجاً جديداً : يتلاءم ويتناسب ، مع عقلية العصر الحديث ، وفي أثناء عرض هذا المنهاج ورسم هذه الطريقة : تعرضت لبعض القضايا الكبرى ، بقصد توضيح الفكرة المنهجية ؛ وبقصد إثارة الاهتمام بها لا بقصد معالجة هذه القضايا بالتفصيل ، لأن معالجتها بالتفصيل يحتاج إلى أعمال كبيرة ، ومجهودات ضخمة ؛ لا يكفي معها مجهود فرد واحد مهما كان !

ولهذا كانت معالجتى لها تنسم — أحياناً — بالإشارة والتعميم ، ولهذا فإن القارئ يحتاج لفهمها إلى شيء من التأمل والروية .

أما فيما يتعلق بعرض المنهج الذى هو يمثل صلب الكتاب وجوهره ؛ فقد جاء هذا العرض واضحاً .

والمهم فى الكتاب أن يوضح ما جاء من أجله ؛ لا ما جاء فيه عرضاً ، وكان فى إمكانى توضيح ما جاء فيه عرضاً أكثر من هذا ، غير أن محاولتى لأن يكون الكتاب موجزاً ، متناسقاً ، واضح الغرض ؛ بأقل تعبير ، فى حجم صغير ؛ جعلنى أكتفى بهذا القدر وهذا الحجم .

وختاماً لهذا التمهيد : لا يسعنى إلا أن أسجل شكرى لاستاذى الفاضلين ؛ الأستاذ الدكتور محمود قاسم عميد كلية دار العلوم - جامعة القاهرة - ورئيس قسم الفلسفة الإسلامية فيها . والدكتور محمد كمال جعفر مدرس الفلسفة بالكلية :

لتفضلهما بقراءة هذا الكتاب وإبدائهما بعض الملاحظات .

كما أَسجِلُ شكري بصفة خاصة للأستاذين الفاضلين : الأستاذ الدكتور عبد الحلیم محمود الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، والأستاذ محمد عبد اللطيف ابن الخطيب : حيث تفضلتا بقراءة الكتاب وإبداء رأيهما بصراحة ووضوح في جميع نواحيه في تقديمهما له .

والله أسأل لهم جميعاً دوام التوفيق في خدمة العلم والمعرفة .

مِقْدَادُ يَالْحِجْنِ

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

للإسلام قيمة عظيمة ، تتجلى لنا هذه الحقيقة : حين ندرك أنه أعظم تفسير لبدء هذا الوجود ومصيره ، وأنه منهاج الله الدائم للإنسانية في مفهومه الكلى ، وأحسن نظام ثابت ؛ لتنظيم علاقات الإنسان : سواء كانت هذه العلاقة بينه وبين خالقه ، أم كانت مع بقية أبناء جنسه .

ولكن هذه القيمة العظيمة ، وهذا المفهوم القيم ، قد زال عن الإسلام في أذهان كثير من المسلمين ، وبدءا يتناقصان يوماً بعد يوم في العالم الإسلامي كله . وذلك بسبب العوامل المتعددة ، ورواسب القرون المتتالية ؛ التي كانت لها أسوأ أثر في تغيير المفاهيم الإسلامية ، وتشويه معانيها السامية ، وإبعاد المسلمين عن منهجه وطريقه المستقيم .

هذه العوامل لا بد أن نتعرف عليها لإزالتها ، ولا يكفي أبداً تعرفنا على هذه العوامل مجردة عن أسبابها الحقيقية ، ذلك أن القضاء على ظاهرة ما ؛ لا يجدي شيئاً ما بقي سببها ، وأن بقاء الأسباب : سبب لتجدد المسببات من حين إلى آخر .

ثم بعد معرفة العوامل وأسبابها ؛ لا بد من اتخاذ أسلوب وطريقة ؛ للتخلص منها . ومن هنا ندرك مدى ضرورة اتخاذ منهاج جديد .

بعد هذا لا بد من اتخاذ منهج أيضاً لإظهار جوهر الإسلام وقيمه ؛ حتى نستطيع أن نجيبه إلى الناس عامة ، وإلى المسلمين خاصة ، وندخله في قلوبهم .

ذلك أن بعض الظروف المحيطة بنا ، والتي لم تكن موجودة من قبل ؛

تضطرنا إلى اتخاذ طريقة جديدة لإزائها .

وأخيراً يتحتم علينا : اتخاذ وسائل معينة لتنفيذ هذا المنهج .

فإذا أردنا إعادة الإسلام إلى واقع حياتنا ؛ فلا بد أن نتخذ منهجاً ، ولا بد أن يكون هذا المنهج محدداً ، وأن يكون سليماً منطقياً .

أما ضرورة المنهج المحدد ؛ فلما عرفنا . ولأن كثيراً من الزعماء الذين حاولوا الإصلاح ولم يتخذوا لأنفسهم منهجاً محدداً : كان حليفهم دائماً الفشل !

وأما ضرورة أن يكون المنهج سليماً منطقياً ؛ فلأن كل منهج لا يؤدي دائماً إلى الغاية التي وضع من أجلها ؛ إلا إذا كان سليماً منطقياً .

ولا يمكن أن يكون المنهج سليماً في هذا الشأن ، إلا بعد دراسة جميع المشاكل المختلفة التي يعاني منها المجتمع الإسلامي ، ومعرفة حكم الإسلام في الأوضاع الحاضرة .

ثم دراسة حقيقة موقف المسلمين من الإسلام من جهة ، وموقف الأعداء من الإسلام والمسلمين من جهة أخرى .

ولأنني حين أدركت تلك القيم العظيمة ، التي اختص بها الإسلام ، إلى جانب إدراكى تلك العوامل التي شوهت روح تلك القيم ، وتلك الرواسب التي رانت عليها ، وسرت جوهرها عن أعين الناس ؛ حتى أبعدت المسلمين عن الإسلام ، وجعلت الباحثين عن الحق لا يرون — وسط هذه الظلمات — تلك الحقائق التي لو رأوها كما هي لاتبعوها بلا شك ! ثم إدراكى بعد ذلك أسباب فشل تلك المحاولات التي قام بها المخلصون ، لإعادة الإسلام إلى الحياة .

حين أدركت كل هذا : اهتديت إلى منهج أرى من الواجب اتباعه في الدعوة إلى الإسلام ؛ في هذا العصر ، الذي تحير الناس فيه في اتخاذ منهج ثابت للحياة يسعدهم فيها سعادة كاملة ، العصر الذي يعج العالم فيه بالمبادئ الأجنبية المتشعبة ،

الكثيرة ، التي أثارت الخلاف والشقاق بين الشعوب الإسلامية خاصة ، وشعوب العالم عامة !

وإني أرى ضرورة اتباع هذا المنهاج ، حتى نستطيع بذلك أن نزيل عن الإسلام الرواسب المتركمة عليه ، ونظهره في ثوب جديد ؛ يسر الناظرين ، ويجذب أفئدة الشعوب للعمل به ، وللسير على منهجه في الحياة .

وفي هذا المنهاج عقدت فصلاً : حاولت فيه أن أبين حاجتنا إلى الإسلام ؛ كأعظم تفسير لهذا الكون ، وأحسن منهاج وضع لسعادة الإنسان .

ثم عقدت فصلاً ثانياً : كشفت فيه أهم العوامل التي شوهت روح الإسلام ، والتي لا تزال تؤدي دورها هذا ، حتى الوقت الحاضر .

إلى جانب هذا بينت الوسائل التي بها يمكن أن نتخلص منها .

بعد هذا : عقدت فصلاً ثالثاً : رسمت فيه الطرق التي يجب أن تتبعها حتى نستطيع أن نظهر الإسلام في ثوب جديد ، وفي صيغة حديثة ؛ تلائم عقلية العصر الحديث ، وتوسع لجميع الوقائع الموجودة حالياً .

وأخيراً عقدت فصلاً رابعاً : وضحت فيه الوسائل التي يجب اتباعها ؛ لتنفيذ هذا المنهاج والطرق التي رسمتها له .

وإني لأسأل الله تعالى التوفيق لما نهدف إليه ، والهداية إلى طريق الحق الذي يرتضيه . وأسأله أن يحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون !

مقدّمات بالجوب

الفصل الأول
حاجتنا إلى الإسلام، كمنهج للحياة

الإسلام

منهاج المهّي خال للحياة

لو أدرك الناس حقيقة الإسلام ، وفلسفته التي تقوم عليها نظرياته المختلفة ، التي جاء بها لتعالج المشاكل لهذا الإنسان : المعقد الرغائب والأمزجة ، ووقفوا بجانب ذلك على الحقائق التاريخية — قديماً وحديثاً — لحياة الإنسان : كيف سعد حين سار على طريقة الإسلام ، وكيف شقى حين خرج منها ، وحاد عنها :

لو أنهم وقفوا على كل هذه الحقائق : لأدركوا تماماً أن الإسلام منهاج لمهّي خالد للحياة ، وضعه الله لسعادة الإنسان ، منذ أن خلقه فوق هذا الكوكب .

إذن فليس الإسلام حديث العهد بالإنسانية ، وإنما هو دين الله الدائم ، ومنهجه الوحيد ، مصداق ذلك قوله تعالى : « إن الدين عند الله الإسلام » (١) . ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » (٢) .

فقد سار على هذا المنهاج آدم عليه السلام ، وسار من بعده الرسل حتى محمد — صلى الله عليه وسلم — من غير تبديل أو تغيير في أصل من أصوله العامة ، أو قاعدة من قواعده الكلية ، يؤيد هذا قوله تعالى « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » (٣) .

وإذا كانت هناك تشريعات جزئية مختلفة : من شريعة نبي ، إلى شريعة نبي

(٢) سورة آل عمران آية ٨٤

(١) سورة آل عمران آية ١٩

(٣) سورة الشورى آية ١٣

آخر ؛ وفقاً لتطورات اجتماعية ، ولاختلاف الظروف والبيئات ؛ فهذا لا ينافي
أبدأ اتفاق الاصول والنظريات الكلية .

وبناء على هذا الفهم : ذهب فقهاء الاحناف إلى أن شريعة من قبلنا : شريعة
لنا ؛ ما لم يرد نسخ صريح .

هكذا كان الإسلام : منهاج الرسل والانبياء الذين جاءوا قبل نبينا ، وكلما
قبض نبي تفرقت أمته ، وشوهت معالم هذا المنهاج ، وحرقت مبادئه وفقاً لهواهها ،
وخرجت عن سواء السبيل ؛ حتى ضلت عن منهاجها السوى .

عند ذلك يختل فهم نظام الحياة ، والقيم الإنسانية الحقيقية : فتفسد الحياة ،
وتفسد القيم ، ويتسرب الفساد إلى أمزجة الناس ، وأخلاقهم ، ومن ثم يعيش
الناس في شقاء وحيرة وظلام !

في هذه الحالة : إما أن ينزل الله بلاء عليهم فيهلكهم ، أو يرسل إليهم رسولا
يدعوهم إلى طريق الحق ، وإلى منهاج الله المرسوم لهم ؛ فيكشف لهم عن
جوهره ، ويزيل ماران عليه من الخرافات ، ويعيد المبادئ المحرقة إلى أصولها
الصحيحة !

فعندئذ من الناس من يفتح بصيرته ليبصر الحق فيرى ، ويتفقه بقلبه ليعتد !

ومن ثم فهم يؤمنون بما جاء به من الحق ، متجردين من المصالح الشخصية ،
والتعصب البغيض ، أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة
ورزق كريم (١) ،

ومن الناس من لا يصغى ليسمع ، ولا يفتح بصيرته ليبصر ، ولا يعمل قلبه
ليفقه ، صم بكم عمى فهم لا يرجعون (٢) ،

لا يؤمنون لأنهم لم يحكموا عقولهم أولاً ، ولم يتجردوا من مصالحهم الشخصية
وتعصبهم البغيض ثانياً . وبذلك حقت عليهم الضلالة ، أولئك كالأنعام بل هم
أضل أولئك هم الغافلون (٣) ، !

هذا وقد يظهر لهم أن أكثر ما يدعو إليه الرسول : جديد وغريب عليهم ؛ لانحرافهم عن المنهج ، وتحريفهم مبادئه ، وتراكم الخرافات عليه ، ومن ثم يتهمون به بأن ما أتى به من المبادئ الجديدة : اختلقها من عند نفسه ؛ فقالوا « إن هذا إلا اختلاق (١) ، وتعجبوا منها » بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب (٢) ، « أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجيب (٣) ، .

وقد يكون بعض ما يدعو إليه موجوداً في دين نبي سابق ؛ وهنا يتهمونه بأنه أخذه من السابقين ، ويريد تأليف دين مصطنع من هذا وذاك .

ومهما يكن من أمر فإن الله لم يرسل رسولا ؛ إلا وأظهر على يديه طريق الحق ، ونور الهداية ، ومنهاج الحياة .

هكذا استمرت الحال ؛ حتى جاء آخر الأنبياء ، وسيد الرسل : محمد بن عبد الله — صلوات الله عليه وسلامه — فأبطل تلك الأباطيل المتلاحقة بمنهج الله ، وأعاد تلك المبادئ المحرقة إلى أصولها الصحيحة ، وأزال عن وجهها تلك الظلمات الخالكة ، وأعاد الحق .

وقد حاربوه بجميع الوسائل التي يمكن الوقوف بها أمام دعوته « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون (٤) ، .

وختمت به الرسالات واكتمل بما جاء به منهاج الله بجميع جزئياته وفروعه وصدق الله العظيم : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً (٥) ،

في العبارات الموجزة السابقة : حاولنا توضيح أن الإسلام منهاج الله للبشرية ؛ يمتد تاريخه الحقيقي إلى بداية الحياة الإنسانية .

بيد أن هذا لا يكشف لنا جوهر هذا المنهاج ، ومدى حاجتنا إليه ؛ لذا سوف نبهت في الصفحات القليلة الآتية عن هاتين الناحيتين في جوانبه المختلفة

-
- | | | |
|------------------------|---------------------|------------------|
| (١) سورة ص آية ٧٥ | (٢) سورة ق آية ٢٥ | (٣) سورة ص آية ٥ |
| (٤) سورة المائدة آية ٣ | (٥) سورة الصف آية ٨ | |

واستخراجها ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً ؛ حتى يتضح جلياً ما نتوخاه من عقد هذا الفصل في بداية هذا الكتاب .

جَانِبُ الْعَقِيدَةِ

إن العقيدة الإسلامية : خير وسيلة لإسعاد الإنسانية ؛ من حيث إنها أصدق تفسير للوجود . يمكن أن تطمئن لها العقول ، وتعتمد عليها ، ومن حيث إنها أكبر وازع ، وأعظم رادع عن الشر !

أما إنها أصدق تفسير للوجود : فهذا حق لا ريب فيه ؛ تظهر هذه الحقيقة عند التفكير السليم !

ذلك أننا عندما نلاحظ التفسيرات التي قام بها الإنسان — عبر تاريخه الطويل — لتفسير هذا الوجود ، وللوقوف على حقيقة هذا الكون الكبير ؛ حين نلاحظ هذا ؛ نعرف أنها لم تشف غليل الدافعية في الإنسان إلى محاولة فهم هذا الوجود المحيط به .

هذه الدافعية حقيقة واقعة ؛ ذلك أنه ما من أمة إلا واند تساءلت عن حقيقة هذا الكون : كيف وجد ؟ ومن الذي أوجده ؟ ومتى وجد ؟ وما حقيقة الإنسان ؟ وما مصيره ؟ ما الموت ؟ وماذا بعد الموت ؟

وما خلت أمة من الأمم — قديماً أو حديثاً — إلا وقد أوجدت لها تفسيراً ، سواء كان حقاً أو باطلاً ؛ استمدت تفسيرها من الأديان ، أم من عند نفسها .

غير أن هذه التفسيرات غير الإسلامية ، ونقصد من الإسلام معناه الحقيقي الذي ذكرناه سابقاً .

هذه التفسيرات : متضاربة مختلفة ، غير شاملة ؛ بالإضافة إلى هذا فإنها متزوعة غير ثابتة ، وبعضها ضعيف واه .

لأن أكثر هذه المفسرات : واقعة وراء حدود إدراك العقل الإنساني .

فهم وإن اهتمدوا إلى معرفة وجود بعض المغيبات : مثل البعث ، والحياة الأخرى ؛ إلا أنهم أحسوا بجهلهم لمعرفة كيفيته ، فإن بينوا شيئاً منها موافقاً للدين ؛ فإنما استمدوه منه بطريق مباشر أو غير مباشر . . .

أما وجود أجسام نورانية : مثل الملائكة ؛ فلا يمكن إدراكه بالعقل ؛ لا كما ، ولا كيفاً . وإن سلم العقل — بعد سماعه بطريق الوحي — بإمكانه .

بعد هذا العرض السريع لهذه التفسيرات ، من الممكن وصفها بما يأتي :

أولاً — أنها غير شاملة .

ثانياً — أنها غير ثابتة .

ثالثاً — أنها لا تجعل الإنسان يطمئن إليها ، ولا يسترخ لها ؛ بل يظل متذبذباً ، متحيراً ، مززعج الفكر ، مشتت العقل ، غير ثابت الاتجاه .

من أجل هذا : كان الناس بحاجة شديدة إلى عقيدة تفسر هذا الوجود ، منزهة عن الخصائص السابقة ، متصفة بالشمول ، والثبات ، والصدق ، والمطابقة للحقيقة ، تطمئن إليها العقول ، وتسترخ لها القلوب .

ومن أجل هذا : وضع الله للناس منهاجاً اعتقادياً متصفاً بالأوصاف السابقة ؛ حتى يثبتوا على عقيدة واحدة ثابتة واضحة ؛ يسرون على هداها ، في فهم الحياة ، وما بعد الحياة .

فبذلك أراح الله الناس بهذه العقيدة من تلك الضلالات ، والمجهودات العقلية ، التي لا يمكن أن تصل مهما بذلت من جهد إلى نتيجة مطلوبة .

وأما إنها أكبر وازع ، وأعظم رادع عن الشر فكما يتبين لنا ذلك الآن ؛ حقاً أن هناك زواجر للإنسان : مثل القانون ، والمجتمع ، والضمير .

والضمير : من أضعف الزواجر ؛ إذ لم يستند إلى الإيمان بالله !

وسلطان القانون والمجتمع : يمكن أن يأمن من سطوتهما في حالات متعددة ؛ فعند ذلك يفعل ما يريد ؛ مادام يجد الفرصة السانحة للجريمة التي أراد ارتكابها !

هذا كما أنه يمكن أن يتخلص من سلطانهما بالوسائل المختلفة كما نرى اليوم ؛ كيف يبرر المجرمون جرائمهم ، وتضيق الحقوق في سبيل المحاباة ، والرشوة ، والخدعة ، وغير ذلك من الطرق المعروفة وغير المعروفة .

أما العقيدة الصحيحة (أى الإيمان بالله) فهي أقوى من الزواج السابقة ، وأكثر شمولاً على الحالات الظاهرة والخفية .

ذلك أنه عند ما يؤمن المرء ، إيماناً صادقاً أن هناك إلهاً يراه ، ويراقبه في أعماله ، ويحاسبه عليها «يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم» (١) ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، ولا يخفى عليه شيء ؟ لأنه يعلم الجهر وما يخفى : يراه أينما ذهب وحل .

عند ما يؤمن هذا الإيمان : فإنه لا جرم يردعه عن ارتكاب الجرائم والتعدى على حقوق الناس ، ولو أمن سطوة الحاكم ، وسلطان القانون ، وتعيير المجتمع .

إلى جانب هذا فإن الإيمان لا يتركه يقف موقفاً سلبياً حيال المجتمع ؛ بل يدفعه إلى التعاون معه ، وعمل الخيرات ، وإلى الإخلاص في عمله ، وإلتقان صنيعته .

ثم إن الإيمان كما يقول نديم الجسرى «دواء ناجع لمعالجة الأمراض التي تتهدش القلوب ، وتأكل الصدور ،

فهو برد للقلوب إذا احترقت عند المصائب ، وهو طاقة تمد العرائم بالقوة في الشدائد ، ومسكن للنفوس إذا نزل الموت أو قربت أيامه ، وعماد الرضى والقناعة بالخطوط ، وشفاء للصدور من مرض الحسد ، والانتقام والغیظ .

وماذا تكون حياة الإنسان عند فقدان الإيمان ؟

لاشك تكون أشقى وأسوأ من حياة الحيوان !

ذلك أن الحيوان يموت كما نموت ؛ ولكنه في نجوة من هلع المصير ، وخوف الموت . ويجوع كما نجوع ، ولكنه في مأمن من هم الرزق ، وكرب الحاجة ، ويتمتع

(١) سورة الشعراء . آية ٨٨ (٢) سورة سبأ آية ٣

كما تتمتع ؛ ولكنه في راحة مما يأكل القلوب : كالحسد ، والكذب ، والنميمة ،
والقذف ، والنفاق ، والخيانة ، والعقوق ؟

وهو يدافع عن نفسه كما ندافع ، ويسفك الدماء ليشبع ، ولكنه لا يسفك
ترفعاً ، ولا تكبراً ، ولا جوراً ، ولا سرفاً !

أما هذا الإنسان : الملعون ، الجزوع ، الطامع ، المتكبر ، السافك الدماء ؛
فإنه لا علاج يشفيه من هذه الأمراض ؛ إلا الإيمان . وبدون الإيمان فإن
الإنسان يصبح أسوأ الخلائق حظاً ، وأشدّها شقاءً ، وأرذلها مصيراً ، (١) .

وأخيراً : فإن العقيدة جاءت من أجل أغراض لم تستنفد بعد :

من هذه الأغراض : تحرير الإنسان من عبودية الأصنام ، أو الحيوانات ،
ولتحريره من عبودية الناس ، وعبودية المال ، والشهوة !

ولا زالت هذه الضروب من الاستعباد قائمة ، لا يزال مئات الملايين من
الناس يعبدون الأصنام ، والحيوانات ، أو غيرها ؛ في مختلف أجزاء الأرض ،
وأكثرهم في الهند ، والصين ، واليابان .

ولا زال بعض الحكام : مستبدين ؛ يجعلون الناس عبيداً لهم ، ولا زالت
الشهوة والمال يستعبدان الناس ويذلانهم !

إننا ما زلنا بحاجة إلى العقيدة ، إلى الإيمان بالله ؛ إن أردنا أن نحيا حياة
سعيدة مطمئنة !

(١) انظر كتاب قصة الإيمان لنديم الجسرى ص ٢٧٥ — ٢٧٦

الجانب الأخلاقي

إن ضرورة الأخلاق الإسلامية تبدو واضحة : حين ندرس النظريات الخلقية لدى الفلاسفة والأخلاقيين في المجتمعات والأمم الأخرى .

لإنهم ذهبوا في تفسير النظريات الأخلاقية ، والقيم الإنسانية مذاهب شتى ؛ فمنهم من فسرها تفسيراً بيولوجياً ، ومنهم من فسرها تفسيراً إنسانياً ، ومنهم من فسرها تفسيراً اجتماعياً ، واختلفوا أيضاً في معنى الحق ، والخير ، والشر ؛ فأصبحت لهم فيها مذاهب متعددة ، وآراء مختلفة ؛ لا تستند إلى أصل ثابت ومنبع واحد .

الامر الذي أدى بهم إلى أن يختلفوا في سلوكهم ، وآرائهم ، واتجاهاتهم في الحياة .

إن سيادة مفهوم واحد ، في مجتمع ما ، حول فهم النظرية الخلقية ؛ له أهمية كبرى : ذلك أنه لا يمكن أن يسود التآلف والترابط والتعاون والمحبة ، ولا يتم التوافق الاجتماعي في مجتمع ما ، أو بين المجتمعات بعضها مع بعض ؛ إلا إذا وجدت هناك الوحدة الأخلاقية ، ووجد اتفاق بين الأفراد : في السلوك ، والاتجاه ، وفهم الأخلاق .

إذن كيف يمكن أن تسود سعادة اجتماعية في مجتمع ما ؛ إذا اعتقد بعض أفرادها بأن الخير : هو إشباع الغرائز الشهوانية للإنسان ، وأن لاخجل ولا حياء في طلب اللذة ، ويجب تحقيقها في ساعتها ؛ لأن تأخيرها عن موعدها : يؤدي إلى الهم والحزن .

ذهب إلى هذا الرأي « ارستوبوس » ثم وافقه « ابيقور » ، في أن الخير : إشباع اللذة ، ولكنه خالفه في تعجيل اللذة ؛ إذا كان تعجيلها يؤدي إلى الألم .

واعتقد الآخرون بأن الخير : هو تحقيق أكبر قدر يمكن من المنفعة ؛ لا أكبر قدر يمكن من الناس ، كما ذهب إلى هذا « بنطام »

وكيف تسود السعادة : إذا اعتقد بعض الافراد الإباحية واعتقد الآخرون
تحريرها ؟

هذه بعض مظاهر الاختلاف في المبادئ الأخلاقية .

أما الأخلاق الإسلامية : فليست فيها مفاهيم مختلفة ، ومذاهب متنوعة ؛
فهى تمتاز على الأخلاق عند الفلاسفة والأخلاقيين ؛ بعدة ميزات .

أولى هذه الميزات : وحدة المصدر والصورة ؛ لأن الله تعالى هو الذى وضعها
لذا فإنها تنسم بالوحدة ، ومن هنا نرى وحدة المبادئ الأخلاقية بين الشعوب
الإسلامية .

ثانيها : أنها مرسومة من عند الله ؛ فلا تتغير ولا تبدل ؛ لأن هدفها الخير
المطلق ، وهو لذلك خير وسيلة !

وما أوجنا إلى أخلاق ثابتة ؛ فى عصر أصبحت القيم منبعها الناس
والفلاسفة خاصة .

وأخيراً : الإخلاص فى السلوك لوجه الله ؛ هو الغاية المنشودة فى الأخلاق
الإسلامية .

إن الإسلام يدعو إلى الصدق فى القول ، والأمانة فى المعاملة ، والحياة
فى المعاشرة .

وجميع المجتمعات فى جميع العصور ؛ بحاجة إلى هذه المبادئ ، فبذلك تظهر
قيمة الأخلاق الإسلامية ، ومدى سموها على النظريات الخلقية الأخرى .

جَانِبُ الْعِبَادَةِ

إن جانب العبادة من الإسلام : هو الذى يحدد علاقة الإنسان بربه ، وصلته به .

فالعِبَادَةُ : طريق مرسوم من الله تعالى : بين لعبده فيه : كيفية الاتصال به ، وقد جعلها الله فرضاً عليه بكيفيات مختلفة ، وعلى فترات متعاقبة طول عمره ؛ ليسكون دائم الاتصال به ، ذا كراً له .

إذن فأدائه العبادات : تذكره الله ولقائه يوم الحساب . وتركه إياها ؛ يدل على نسيانه .

ولهذا قال تعالى لتاركى هذه الصلّة « اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا وما أواكم النار وما لكم من ناصرين (١) »

وإذا تذكر الإنسان أنه عبد الخالق : فلا يمكن أن يكون عبداً لمخلوقه ، كما أن ذكره لله : اطمئنان لقلبه ، ألا يذكر الله تطمئن القلوب (٢) ،

والعبادة : غذاء الروح . إذ أنها فى أثناء أدائها : تشعر بالانشراح ، والراحة ، والانطلاق ، والتسامى على هذا العالم المحسوس ؛ الذى يعتبر مصدر الآلام والغموم والأحزان .

هذا وإن روح التعبد : فطرة فى الإنسان ؛ أودعها الله تعالى فيه منذ خلقه ليعبده .

مصدق ذلك قوله تعالى « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون (٣) » وقال

(١) سورة الجاثية ٣٤ (٢) سورة الرعد ٢٨ (٣) سورة الذاريات ٥٦

أيضاً : « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون (١) »

هذه الفطرة : هي التفسير المعقول لظاهرة التعبد ؛ التي نلسمها بصورة واضحة عبر تاريخ الإنسان منذ قديم الزمان إلى يومنا هذا .

فما من أمة إلا اتخذت لنفسها صورة من صور التعبد .

أما ظهور بعض الثورات على هذه الفطرة من بعض الطوائف ، في بعض الأمم ، في فترة من فترات تاريخها الطويل : فذلك ليس بدليل أبدأ على انعدام هذه الفطرة ، أو عدم وجودها في الإنسان . بل ظهورها بعد الثورة عليها في فترات قليلة متعاقبة ؛ دليل على أصالتها .

هذا وكما أن سبب وجود بعض الثورات على صورة من صور التعبد في بعض الأمم : قد يكون فساد صورة التعبد الشائعة فيها ، أو بطلان المعبود .

مثل عبادة الأوثان والأصنام ؛ لأن عقلها بدأ لا يستسيغ ألوهية ذلك المعبود .

وقد تعود هذه الثورة : إلى فساد الجماعة النائرة ضدها ؛ لأن الإنسان أحياناً قد يفرط في الاهتمام بجانب من حياته ؛ اهتماماً يؤدي إلى تناسي الجانب الآخر مدة اهتمامه به ، ومن الممكن أن تكون ظاهرة اتخاذ المعبودات الباطلة . دليلاً من أدلة وجود هذه القوة الروحية التعبدية الدافعة في الإنسان ، هذه القوة قد دفعته إلى عبادة هذه المعبودات — ولو كانت باطلة — عند عدم وجود ما هو أصح وأحق عند هؤلاء .

وإلا فما الذي دفعهم إلى عبادة الأصنام ، والحيوانات ، والأشجار ؛ وهي كلها لاتعقل شيئاً ، ولا توصل نفعاً ، ولا تدفع ضرراً ، هل يسمعونكم إذ تدعون ، أو ينفعونكم أو يضرون (٢) ،

(٢) سورة الشعراء ٧٢ — ٧٣ .

(١) سورة الروم ٣٠

يقول بعضهم : إن السبب في ذلك هو الطورطامية (١) غير أن هذا القول غير مسلم به ؛ وإنما هو تفسير من تفسيرات ظاهرة عبادة الإنسان للجهادات .

وعلى كل فرأني : هو أن الإنسان حين توجه نحو التعبد ، بدافع هذه الفطرة : لم يسترح ، ولم يجد سبيلا يسلي نفسه فيه ؛ إلا باتخاذ معبود يعبده ؛ ولو كان هذا المعبود من أئنه الأشياء التي لا يجدر بالإنسان أن يتذلل أمامها ؛ لو فكر وعقل !

يقول بعض الناس : إن الخوف من الطبيعة ؛ هو الذي جعل الناس يتخذون لها يعبدونه ، ويلجأون إليه ، ويتقربون له بعبادته ؛ حتى يحفظهم من شر الطبيعة وذلك كان في أطوار الجاهلية التي مر بها الإنسان ؛ غير أن هذا ليس بصحيح عندي ؛ لأن بعض الناس حتى اليوم : لا يزالون على هذا النحو ؛ حتى أكثر الأمم تقدماً في العلم ، واتخاذاً لوسائل الوقاية من الطبيعة .

وإذا كانت روح التعبد : فطرة في الإنسان ؛ فإنه إذا أدى العبادة لله : فقد استجاب لنداء الفطرة ، وحقق مطلباً من مطالبه الروحية ؛ وبذلك يكون قد حقق لنفسه نوعاً من السعادة . لأن الإنسان يشعر بذلك : أنه متصل بخالقه ، وأنه قد أدى واجبه نحوه ، ولذا فهو يكلؤه ، ويرعاه ، ويكافئه على أعماله ؛ إن عاجلاً أو آجلاً ، وأن أمره دائماً موكول إلى من بيده الأمر ، ومصيره راجع إلى من هو راض عنه !

لكن ليست كل عبادة فيها سعادة روحية ، بل يجب توفر شرطين ؛ ليشعر الإنسان بالسعادة الكاملة من العبادة :

الشرط الأول : أن يكون المعبود : حقاً معقولاً ، له أدلة ظاهرة على ألوهيته !
الشرط الثاني : أن تكون صورة العبادة سليمة ؛ وذلك بأن تكون معقولة ، ظاهرة الحكمة من مفاهيمها الكلية على الأقل ، وألا يكون فيها ما تنفر منه

(١) تمجيد الإنسان لبعض المخلوقات .

النفس ، ولا يمتنع بصورة مستمرة مطالباً من مطالب الإنسان الحقيقية .

فعدم توفر هذين الشرطين في العبادات السائدة في بعض الشعوب : هو السبب لما ندسه فيها من ظاهرة الاضطراب الروحي ، والثورة على الدين ، وتغيير صور العبادة .

كل هذه الأمور : هي التي تظهر لنا مدى حاجتنا إلى عبادة توافق صورتها مشيئة المعبود الحق : ومثل هذه العبادة نجدها في الإسلام وحده .

فإن الإسلام أثبت أولاً : وجود المعبود بأدلة عقلية وعلمية وحسية ؛ لاجمال للشك فيها ، عند الوقوف على حقيقتها ، وروحها المقنعة ، كما أثبت صفاته وعلاقته بالكون والإنسان .

ثم شكل العبادة بأنواعها ؛ وبذلك أصبح لها صورة مجردة ، ثابتة ؛ لا دخل للناس في تشكيلها بالزيادة أو النقص ؛ لأن المعبود الحق ؛ هو الذي بين كيفيتها على حسب مشيئته ، وعلى الصورة التي يرضى عنها .

من أجل هذا كله : يشعر الإنسان بالسعادة الروحية الكاملة ؛ من أداء العبادات الإسلامية ، وما ذلك إلا لأن المعبود أو الإله الذي نعبد : حق . والعبادة التي نتعبد بها : موافقة لمشيئة الله ، ومن ثم فهناك توافق بين الدافع الفطري ، وبين صورة العبادة .

ومن هنا نعلم أن العبادة : غذاء روحي . وأنها ضرورة للإنسان ؛ ضرورة الطعام للجسم المادي ؛ وإن كان بعض الناس لا يشعر بهذه الضرورة ، وهذه السعادة ؛ لمرض روحي فيهم . كما أن المزاج الفاسد : لا يستلذ بالطعام الشهي والطيب .

بقي شيء آخر لا بد من إضافته هنا : وهو أننا حاولنا إظهار حكمة العبادة ، وفلسفتها ، وروحها ؛ فإنه يجب أن يكون معلوماً لدى الناس أن هذه ليست كلها ؛ وإنما هي جزء من كل : نبديها بقدر ما ندرك ، وهناك حكم يعلمها الله ؛ وقد لاندركها نحن ، وقصر حكمة العبادة على أشياء معينة : له خطورة قد يقلل قيمتها في نظر بعض الناس .

الجانب القانوني

وسيرته على القوانين الأخرى

إن المقارنة تعقد عادة بين شيئين متماثلين ، أو بين أمرين يمكن أن يتماثلا في شيء . فمن هذه الناحية لا يصح عقد مقارنة بين الإسلام وغيره من النظم الإنسانية . إذ لا مماثلة هناك : فإن الإسلام ليس بمنزلة هذه النظم ، ولا يمكن أن ينزل إلى مستواها .

غير أننا لما رأينا أكثر الناس يرون ، أو يعتقدون : أنه ليس في الإسلام قوانين لتنظيم كافة نواحي الحياة ، أو يرون أن ما فيه من النظم : لا يساوى ؛ أو لا يرتقى إلى مستوى النظم الإنسانية الحديثة .

لما رأينا هذا : احتجنا إلى عقد مقارنة لتوضيح الحقيقة ؛ حتى يروا الحقيقة الواضحة .

فمن هذه الناحية ، وهذه النظرة : رأينا جواز عقد المقارنة إذن :

ولنجاول هنا أن نرسم الفروق الرئيسية بين القانونين : القانون الإسلامي ، والقانون الوضعي . أو بين النظامين : النظام الإسلامي ، والنظام الوضعي .

وقبل بيان ذلك : أود أن أوضح شيئاً واحداً ؛ وهو أن كل قانون يضعه المجتمع لنفسه : يهدف — في الغالب والكثير — إلى تحقيق السعادة لهذا المجتمع ، ومع هذا فإن القوانين كثيراً ما تختلف فيما بينها . من حيث مدى سموها ، وتحقيقها الغاية التي وضعت من أجلها . إذ أن بعضها مع اتفائه في الهدف ؛ قد لا يحققه عند التطبيق .

إما لأنه لا يلائم طبيعة التكوين الإنساني ، أو لأنه لا يراعى بعض الظروف المحيطة بالإنسان ، أو يكون عند الوضع مراعيها طبقة معينة من الناس ، أو ظروفها مؤقتة في المجتمع .

وإذا ألقينا النظرة الفاحصة على القانون الوضعي ، والقانون الإسلامي ؛
لوقوف على طبيعة كل واحد منهما ، ومدى سمو أحدهما على الآخر ، والفلسفه
التي بنى عليها كل واحد منهما : وجدنا هناك فروقاً في الأساس ، والغاية ،
وخصائص أخرى كثيرة .

غير أنه من الممكن لنا أن نلخص أهم الفروق والمميزات ، التي يمتاز بها القانون
الإسلامي على القانون الوضعي في النقاط الآتية : —

أولاً — أن واضع القانون الإسلامي : هو الله الذي يعلم الماضي ، ويعلم
المستقبل والمصير .

أما واضع القانون الوضعي : فهو الإنسان الذي لا يزال يجهل حتى اليوم
كثيراً من حقيقة طبيعة التكوين الإنساني ؛ فضلاً عن عدم إدراكه إدراكاً
كاملاً للظروف المحيطة به في الواقع ؛ كما أنه يجهل المستقبل كلية .

ولهذا نرى أن القانون الوضعي : دائم التغير ؛ بخلاف ذلك القانون الإسلامي .

ثم إن القانون الإسلامي : مرتبط بالعقيدة ، ولا يرتبط بحكم الحاكم في قضية من
القضايا . بل على الإنسان أن يكون قاضياً على نفسه ؛ لأن الله يعلم الحق ؛ ويقتص
من الظالم ؛ ولو حكم الحاكم ببراءته : فإن حكم الحاكم لا يعفيه من الحساب يوم القيامة ؛
وهذا له تأثير كبير على الفرد .

ثانياً — أن القانون الإسلامي : ليس مقيداً بوقت ، أو مكان ، أو مجتمع ؛
بل إنه لكل زمان ومكان ، ولكل مجتمع .

من أجل هذا نرى أن النصوص القانونية في الإسلام : تتصف بالعموم
والمرونة ، وعدم الالتزام بالأشكال .

مثال ذلك : أن نظام الحكم في الإسلام له قاعدتان كبيرتان ، لاتغيران ،
ولا يعقل تغييرهما :

القاعدة الأولى — الشورى : فالشورى ينبني عليها نظام الحكم ؛ وهي الدستور الأساسى لكل حكم ديمقراطى .

فيجب أن تؤسس الحكومة على أساس الشورى ؛ فالشكل غير موجود فى القاعدة ؛ فأى شكل يحقق الشورى : يقره الإسلام .

والقاعدة الثانية — العدل : وهو غاية الحكومة ؛ فعلى الحكومة أن تحكم بالعدل ؛ فأى شكل للحكومة تحكم بالعدل : أمر يقره الإسلام . أما القانون الوضعى : فهو مقيد بالظروف ، والزمان ، والبيئة .

ولأن تكون هناك مبادئ صالحة لكل زمان : خير من مبادئ لا تصلح إلا لزمان معين .

ثالثاً — أن القانون الإسلامى : هو الذى يكون المجتمع ، ويصبغه بصبغته ، ويجعله يخضع فى سلوكه للروح التى تحمله ، وبذلك تظهر روح الإسلام فى سلوك المجتمع .

أما القانون الوضعى : فيحدده المجتمع وفقاً لرغبته فى الحياة ، وفهمه لها ، ولذلك تظهر روح المجتمع فى قانونه ، ومن ثم فإن تغيير سلوك المجتمع ، أو فلسفته فى فهم الحياة : يودى إلى تغيير قوانينه ، ومن هنا نلص ظاهرة سرعة تغيير القوانين فى المجتمعات التى تحكم بهذا القانون .

رابعاً — أن القانون الإسلامى : لا يقتصر نظره على إسعاد الإنسانية فى الحياة الدنيا وحدها ؛ وإنما نظره أبعد من هذا ؛ فهو يوجه المجتمع على نحو يودى معه إلى سعادته فى الحياة الدنيا والآخرة ؛ لأن تنظيمه للحياة : يجعل الناس يعملون للآخرة كما يعملون للدنيا .

أما القانون الوضعى : فهدفه إسعاد المجتمع فى هذه الحياة الدنيا فقط . لأن واضعيه لا يعملون إلا مظاهر هذه الحياة ، وصدق الله العظيم « يعملون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون (١) ،

من هذه النظرة السريعة إلى طبيعة القانون الإسلامى ؛ ومقارنته بالقوانين
الوضعية : تتضح حاجتنا إلى القانون الإسلامى ؛ لشموله على الخصائص الرئيسية
الآتية :

الخاصية الأولى : هى عدم تغيره من حين إلى حين آخر ؛ لأن مبادئه الكلية
عبارة عن نظريات ثابتة : تسلم بصدقها بدهاة العقل ، فهى طريق واضح أمامنا
نعالج فى ضوءها الأحكام الجزئية ، والمشاكل التى تحدث من وقت إلى آخر .

الثانية : هى أنه يجعل الناس يخضعون له فى السر والعلان ؛ لأن وراءه اعتقاد
يدفع إلى تنفيذه والإخلاص له !

الثالثة : أنه فى تنظيمه ؛ يراعى سعادة الإنسان فى الحياة الدنيا والآخرة ؛
فإن الموت فى نظره : ليس نهاية الإنسان ، وإنما هو جسر لانتقاله من حياة إلى
أخرى أسمى !

وبذلك يكون الإنسان سعيداً بعمله ؛ لأنه حين يعمل : لا يعمل من أجل
هذه الحياة القصيرة فحسب ، وإنما يعمل قبل كل شئ لحياة أبدية لا نهاية لها .

وما أطيب هذه الأمنية ؛ وما ألد السعادة فى حياة دائمة مستمرة .

فلسفة الإسلام في الحياة

إن فلسفة الناس في الحياة ، ومناهجهم فيها : تتبع وتتولد دائماً تبعاً لإدراكهم لمفهوم الإنسان ، وتصويرهم لطبيعته التركيبية .

ولا شك في أن كل فلسفة ، أو منهج : يهدف إلى تحقيق السعادة للإنسان في الحياة ؛ غير أن السعادة لا تتم وفقاً لكل منهاج أو فلسفة ؛ وإنما تتم وتتحقق : إذا وضع المنهاج ، بعد إدراك طبيعة الإنسان ومطالبه الأساسية ، وإدراك جميع ما يحتاج إليه بحكم الطبيعة والفطرة .

كل ذلك وفقاً لقدرة معلوم وأسلوب معين .

إذن فإن المنهاج الحقيقي المؤدى إلى سعادة الإنسان ، لا بد أن تتوفر فيه الشروط الآتية :

أولاً - معرفة طبيعة الإنسان ، والوقوف على جميع مطالبه الفطرية .

ثانياً - تحقيق كل ما يحتاج إليه بطبيعة الخلقة والفطرة .

ثالثاً - أن يكون هذا التحقيق بأسلوب معين ، وكيفية معلومة ؛ من شأنه أن يؤدي إلى السعادة عند تطبيقه تطبيقاً جيداً .

لأن القانون قد يكون سليماً من العيوب في حد ذاته ؛ ولكن اتخاذ طريقة غير صحيحة لتطبيقه : يؤدي إلى نتيجة سيئة .

بعد إيجاز هذه الحقائق ، ووضع ميزان المنهج الحقيقي : علينا أن نبحث بهذا الميزان ، عن المنهاج المطلوب .

نبحث ذلك في الأديان ، والفلسفات ، ثم نبحث أخيراً في الإسلام ؛ وذلك بدون تمييز إلى دين من الأديان ، أو فلسفة من الفلسفات .

وإذا بحثنا في ديانة البراهمة : وجدنا أن فلسفتها تدعو إلى الاعتناء بالروح فقط ؛ وذلك بالتجرد من الشخصية الظاهرة ، وبتعذيب النفس بالجوع ، والعطش ، والحرمان من مطالب الجسم المادية : مثل النكاح ، وأكل لحم الحيوان ، وعدم مقاومة الشر ؛ لأن مقاومته تؤكد الشخصية .

وهي ترمي من وراء ذلك إلى إقناء الذات الفردية في الله ؛ لإعتقاداً منها أن ذلك هو السبيل الوحيد للخلاص من عذاب الآخرة ؛ إذ لا يستطيع الله حينئذ : معاقبة الإنسان لزوال جسمه المادى ، وحلول روحه في روح الله .

ولكن هذه الديانة لم تستطع بذلك إسعاد الذين يدينون بها ؛ بل ظل هؤلاء — وهم مئات للملايين من البشر — في بؤس وشقاء ، وهملة ؛ منكوبين ، مغلوبين على أمرهم . وما ذلك إلا لأنهم اتبعوا منهاجاً منحرفاً ؛ لم يقيم على أساس تصور شامل لطبيعة الإنسان . بل قام على أساس تصور جزء واحد من كيان الإنسان ، وإغفال الأجزاء الباقية ، أو جهلها .

وذهبت أيضاً فلسفة الرهينة المسيحية مذهباً قريباً من هذا الاتجاه . وهو الاتجاه نحو تهذيب الروح ورعايتها ؛ دون الاهتمام بمطالب الجسم المادية في الحياة . من أجل هذا : حرموا النكاح على أنفسهم ، واستحبوا الانزواء والعزلة .

وجدير بالذكر : أن الرهينة ليست من جوهر دين المسيح ، وإنما هي بدعة ابتدئها رجال الدين المسيحي . وأصدق دليل على هذا قوله تعالى « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم (١) ، لأن مثل هذا الاتجاه ، يمثل هذا الأسلوب ؛ يخالف الحكمة ، وذلك يستحيل أن تكون من جوهر دين المسيح ؛ الذي هو جزء من منهاج الله الواحد ؛ كما ذكرنا سابقاً .

وهناك الفلسفة المثالية الأفلاطونية القديمة : كانت تدعو إلى الاهتمام بالعقل ، وتحقيق مطالبه الأساسية : من المعرفة والعلم ، وما كانت تهتم بالنواحي الأخرى من الإنسان .

لذا فهم قد عاشوا في الخيال أكثر مما عاشوا في الواقع .

عاشوا في أجزاء العقل بعيداً عن الواقع المادى .

يسرحون بعقولهم في عالم المثل الخمن ، واعتبروا هذه الحياة : خيالات وهمية ، أو أنها ظل لهذا العالم العلوى المثالى !

ولهذا فإن الاهتمام بهذه الحياة ، وما في هذا العالم السفلى : اهتمام بما لا يستحق الاهتمام به ، وإنما الذى يستحق الاهتمام ، والغوص في جوهره ؛ هو ذلك العالم المثالى .

غير أن هذا الاتجاه أيضاً : غير سليم ؛ لأنه تناسى جانب الجسم ، والمادة . ومن ثم فلم يجد هؤلاء في حياتهم : السعادة الكاملة الشاملة ؛ وإن سعدوا سعادة جزئية : بالاهتمام بلذة العقل .

ولكن الرغبات المادية ، الممثلة جزءاً كبيراً من كيان الإنسان : ظلت تضيق من هذا الاتجاه المنحرف ؛ حتى انفجرت ضدها ثورة فتولد منها ما يسمى بالمذهب المادى في اتجاه الناس .

وهناك فلسفة أخرى : اتجهت طريقاً ثالثاً لسعادة الإنسان في الحياة ؛ وهى فلسفة مذهب اللذة الحسية ؛ التى تمتد أصولها إلى الفيلسوف اليونانى « ارسطوس » تدعو هذه الفلسفة : إلى تحقيق مطالب الجسم ؛ لأن السعادة — فى نظرها — إنما تتحقق للإنسان : من إشباع رغباته المادية الشهوانية .

ولهذا فإنها تدعو إلى التمتع بمتع هذه الحياة الحسية الحاضرة . والأحياء . ولا خجل فى طلب اللذة ، وألا يؤجلها الإنسان إلى وقت آخر ؛ لأن تأجيلها يؤدى إلى القلق والاضطراب .

وهكذا أخذ هذا الاتجاه : جانب الجسم ، ونسى جانب العقل والروح .

ولا شك أن هذه الفلسفة لا تليق بمكانة هذا الإنسان ، لا تليق بمكانته

الأخلاقية السامية ، بل تنزل به إلى منزلة الحيوان المتوحش ؛ فلا يعرف للناس حقوقاً ، ولا حرماً .

فإنه إذا أراد تحقيق سعادته : لم يرتدع عن ارتكاب أخش الجرائم : من سفك الدماء ، وانتهاك أعراض الناس ، والاعتداء على حقوقهم .

ثم إنها لا تحقق السعادة كما تزعم ؛ إذ ليس من الممكن أن يجد الإنسان كل ما تشبیهه نفسه في كل حين ؛ إما لانعدام المطلوب عند الطلب ؛ وإما لوجود مانع من الموانع يحول دونه ، ويمنعه من الوصول إليه .

فإن مطالب الإنسان كثيرة ، وموانعها كثيرة أيضاً ، قد يكون أحياناً تحقيقها مستحيلاً ، أو قريباً من الاستحالة .

إذن فالسعادة لا يمكن أن تتحقق للإنسان بهذه الفلسفة ، وهذه الطريقة ؛ بل إن هذه الفلسفة : أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع .

ولنفرض أن الإنسان حقق جميع مطالب جسمه في حينه ؛ فإن حرمان الروح والعقل : يجعله في قلق ، واضطراب ، من حين إلى آخر .

وقريب من هذه الفلسفة : فلسفة الوجوديين الملحدين ؛ الذين لا يقرون في حياتهم الجانب الروحي ؛ لعدم اعترافهم بوجود ما يسمى بالروح في الوجود ، أو في العالم ؛ وبالتالي فلا وجود للإله الخالق .

ومهما يكن من أمر اعتقادهم : فإن يجدوا راحة في هذا الاعتقاد : لوجود الروح والإله في هذا العالم ؛ فهؤلاء لا بد لهم من أن يجدوا القلق على مصيرهم بعد الموت ؛ وكان هذا الاتجاه قد ساد في أوروبا نتيجة لظروف . إلا أن أوروبا تتطلع الآن إلى الروحانية من جديد (١) .

من هذا كله يتبين لنا : أنه لاسعادة للإنسانية بهذا الاتجاه أو ذاك ؛ لأنها اتجاهات قاصرة في تصوير طبيعة الإنسان ، وطبيعة الحياة الدنيا ؛ وأخيراً طبيعة الوجود بوجه عام .

(١) محمد رسول لاتبين دينيه ترجمة الدكتور عبد الحلیم محمود ص ٣٦٠

إذن ما الطريقة المثالية التي تؤدي بالإنسانية إلى السعادة ؟

وبعبارة أخرى : ماهو المنهج الذي يجب أن يتبعه الناس ؛ حتى يجدوا السعادة في حياتهم ؟

إن هذا المنهج — منهاج السعادة الحقيقية — يجب أن نبحث عنه ، وقد بحثنا عنه في الفلسفات ، وبعض الأديان ؛ فلم نجده كاملاً وشاملاً ؛ ولنبحث عنه الآن في الإسلام .

الروح وحقها في الحياة الإسلامية

وإذا بحثنا في الإسلام : وجدنا أنه يعترف أولاً بوجود الروح ، فهي في نظره عبارة عن موجود غير مرئي ؛ أودعها الله تعالى في الإنسان : لمعرفة ، وللاتصال به أولاً . ولتدفع الإنسان إلى تحمل مسؤولياته الإنسانية في الحياة ثانياً . وهي وإن كانت غامضة علينا ؛ من حيث كنهها وجوهرها ؛ فإنها ظاهرة من حيث آثارها في السلوك ، وفعاليتها في الأبدان . ولما كانت متأصلة في الإنسان ، فطرية فيه ؛ فلا بد أن يكون لها مطالب تتغذى بها ، وتتقوى بتغذيتها ؛ كما أنها تضعف ، وتضيق بالحرمان منها .

من أجل هذا : فإن الإسلام قرر لها نصيباً من حياة الإنسان ؛ ليؤدي حقها فيه .

إن الحياة الروحية كما قررها الإسلام : هي أداء العبادات المختلفة : من الصلاة ، والصوم ، والحج ، والزكاة ، والذكر دائماً أن الله هو خالقه ، وأنه هو رازقه ، وهو الذي ينبغى أن يستمد منه العون ، ويعتمد عليه ؛ لأن الأمر كله بيده ، وهو على كل شيء قدير !

إن هذه الحياة مؤقتة ؛ ستتحول في النهاية - إن أحسن الإنسان عمله - إلى حياة أبدية ، ملؤها السعادة والهناء !

غير أن هذه الحياة ليست مطلقة ؛ بل لها نصيب محدد من أوقات الإنسان ؛ فلا يسمح الإسلام للمسلم : أن يقضى الليالي والأيام في العبادة ، في حجرة البيت ، أو زاوية المسجد ؛ تاركاً كسب الرزق ، وراحة النفس إلى جانب ؛ حارماً الجسم من حقوقه الأساسية .

وقد روى أن جماعة من الصحابة رضى الله تعالى عنهم : منهم من حلف على مواصلة الصوم ، ومنهم من حلف على قضاء الليالي بالصلاة ، ومنهم من حرم على نفسه النكاح ؛ فلما سمع الرسول — صلى الله عليه وسلم — ما حدث منهم قال : « ما بال أقوام : حرموا النساء ، والطعام ، والنوم ؛ ألا إنى أنام ، وأصوم ، وأفطر ، وأنكح النساء . فن رغب عن سنتي فليس مني »

من هذا نرى أن الإسلام : أمر بالاعتدال في أمر العبادة ؛ وفي ذلك حكمة يدركها من يتدبر فيها .

هذا وللحياة الروحية أثر كبير في سعادة الإنسان .

ذلك أن الإنسان حين يحيا هذه الحياة : يشعر بالاطمئنان ، والراحة ، والسعادة ؛ في أعماق قلبه ، لأنه يحس أنه بذلك يرضى الله ، وهو بعد ذلك يتطلع إلى حياة أبدية ؛ حياة صافية خالية من الاحزان والأكدار . أنه يرى أن الموت لا يقضى عليه ، ولا يقطع عليه حياته ؛ بل ينقله من حياة مؤقتة مكدره ، إلى حياة صافية مستمرة . وأن الأعمال التي يؤديها هنا : سوف تؤتي ثمارها هناك ، وأنه إن لم يستوف حقوقه هنا ، فسوف يستوفها كاملة هناك !

ولذلك فهو لا يجزع من الموت ، ولا يحزن على ما فاته من لذائذ هذه الحياة ؛ لأنه سوف يرى أحسن منها في الحياة الأخرى ؛ مادام سائراً في منهاج الله وطريقه الذي ارتضى لعباده .

هكذا تجعل الحياة الروحية الإنسان سعيداً في الدنيا ، وسعيداً في الآخرة .

أما الذين أهملوا الروح وتركوها تصدأ ، ولم يعطوها حقها من الحياة : فهم في ضيق وحرَج في هذه الحياة : تذبذبهم العصبية ، وتقتلهم الانتحارات ، ويزعجهم خوف الموت ، ويقلقهم ضياع حقوقهم ، وعدم استيفائهم ثمار أعمالهم في الدنيا ؛

فالمرت آت من وراثتهم ، ولا أمل لهم في الحياة بعد الموت ؛ لما عرفوا أن مصيرهم أسوأ لسوء سيرتهم ، وكثرة جرائمهم !

العقل وحقته في الحياة البرسانية

كذلك إذا بحثنا عن نصيب العقل في الحياة الإسلامية : وجدنا أنه لا يفتح أمامه مجال العلم والمعرفة فحسب ، بل إنه كثيراً ما يزوده بالعلم في مجال ؛ ما كان يستطيع العقل وحده أن يصل إليه : وهو علم الغيب ، علم ما وراء هذا الكون ، ووراء هذه المحسوسات . قال تعالى « فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون (١) » ،

حقاً ليس من قدرة العقل أن يدرك ما وراء هذا الكون ، وقد رأينا حيرة الفلاسفة ، الذين حاولوا أن يعلموا منه شيئاً ؛ مع عظم عقولهم ، ومع ما بذلوا من جهودات هي أقصى ما يمكن أن يبذله الإنسان في هذا الصدد ، ومع قصور الإنسان في هذا العلم : فإنه دائم التساؤل عنه طوال تاريخه الطويل ؛ رغم ظهور فلسفة « أوجست كونت » ومحاربتها للبحث في هذا المجال ، وكأن هناك دافع وراء العقل الإنساني ؛ يدفعه إلى هذا التساؤل ، وهذا البحث ، وربما كان ذلك فطرة إلهية ، أودعها فيه منذ خلقه ؛ ليعرف الإنسان أن الوجود ليس هو هذه المحسوسات فقط ، بل أنه أوسع وأكبر مما ندركه نحن بحواسنا .

ومهما كان من أمر ؛ فإن الإسلام أتى في هذا العلم بما يشفي غليل الإنسان ، ويكفيه من التساؤل ، ويحفظه من الزلل ، والتهيه ؛ ويريجحه من عناء البحث ومشقته في هذا الميدان .

وهو لم يمنع العقل من أن يجول في هذا الميدان ؛ قبل أن يشرحه له ، ويأتي

بما فيه من العلم ، كما فعلت فلسفة « كونت » ، بل كان فعل الإسلام مع العقل في هذا الميدان ؛ في غاية الحكمة التي لا يدركها إلا العاقل المفكر .

إذن هنا نوع من التحدد لمجال العقل ، ولكن ليس فيه حرمان العقل من مطلبه ؛ بل لأنه يكون عوناً للعقل الإنساني ، وشفقة ورحمة به .

أما في مجال الأرض وأجوائها وسماؤها ؛ فإن الإسلام فتح أمامه صفحات هذا الكون المحسوس ؛ لأنها مجال إدراكه وميدانه ، الذي يمكن أن يجول فيه ، ويدور بجوانبه المختلفة . ولم يكن بفتح هذا المجال ؛ بل حثه على البحث فيه ، والنظر إلى نظامه ؛ ليصل به إلى معرفة الله ، وليتفع منه ، ويفرض سيادته عليه .

قال تعالى « قل انظروا ماذا في السموات والأرض (١) » و « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق (٢) » . « وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون (٣) » « ومن آياته خلق السموات والأرض ، واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين (٤) » . « إنما يخشى الله من عباده العلماء (٥) » . « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب (٦) »

هذه طائفة من الآيات التي تحث الناس على النظر في الكون ، والبحث فيه عن الحقائق والأسرار الكونية .

كذلك يقدر الإنسان العلماء ويمظهمهم ؛ لأنهم بعلمهم أجدر بإدراك عظمة الخالق ، والخوف منه ، ومعرفة الغاية من خلق الإنسان ، وخلق الكون كله ، وما خلق هذا وذاك عبثاً « أحسبتم أننا خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون (٧) » ، « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار (٨) »

(٢) سورة فصلت آية ٥٣

(٤) سورة الروم آية ٢٢

(٦) سورة الزمر آية ٩

(٨) سورة ص آية ٢٧

(١) سورة يونس آية ١٠١

(٣) سورة النحل آية ١٢

(٥) سورة فاطر آية ٢١

(٧) سورة المؤمنین آية ١١٥

هذا وقد وضع الإسلام بعض المبادئ أمام العقل : ليسير عليها ، حتى لا يضل في بحثه عن الحقائق ، في ميدان عمله .

من هذه المبادئ : البحث الحر دون الاعتماد على الآراء المسبقة ، والعرف ، والعادات السائدة .

أصدق دلائل على ذلك ، هذه الآية « ولنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين (١) » .

فإن الآية تخاطب الكفار في أمر الدين ، وتقول لهم : فإن الحق لا يتعدد : إما أنكم على حق أو نحن ، فتعالوا نبحث بعقل حر ؛ لنهتدى بواسطته : أينا إلى الحق وأينا إلى الباطل ؛ فنترك الضلالة ونتبع الحق ؛ والحق أحق أن يتبع . فأرادت بذلك إزالة التعصب ، والتشويق إلى التفكير الحر .

ومن أجل هذا نعى الإسلام على أن الذين يتبعون الخرافات معتمدين على السابقين ؛ لا يكون تقاليدهم دليلاً منطقياً على صحة الأمر ؛ ما لم يعتمد على دليل عقلي مقنع : قال تعالى « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان أبائهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون (٢) » ، ومن هذه المبادئ : التثبت من كل أمر قبل اتباعه والاعتقاد فيه ، ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً (٣) .

ومنها أيضاً : عدم اتباع الظن .

فالظن أن يكون هناك دليل قاطع على صحة أمر ما ، ويكون إلى جانب هذا بعض دليل ظني ؛ يضاد الدليل الأول .

فيجب ترك الدليل الظني ، وأخذ الدليل القطعي ؛ لأن الظن لا يغني عن الحق شيئاً . قال تعالى « وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني عن

(٢) سورة البقرة آية ١٧٠

(١) سورة سبأ آية ٢٤

(٣) سورة الإسراء آية ٣٦

الحق شيئاً (١) . « فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله (٢) ،

ومنها التفكير المنفرد ، بعيداً عن أوهام الجماعة وتمويهاتهم « قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد (٣) »

من هنا نعلم أن الإسلام وضع للعقل منهاجاً ؛ للوصول إلى الحقائق : الدينية والعلمية . وبين له مجال العمل ، ومجال الإيمان .

الجسم وصفه في الحياة

في بحثنا السابق : رأينا اعتراف الإسلام بالروح ، والعقل ، وبحقوقهما ؛ والآن سندبحث هنا عن رأيه في الجسم ، ومدى تقريره لحقه في الحياة !

إننا إذا بحثنا عن هذا في الإسلام ؛ وجدنا أن النصوص المتعلقة بالحياة المادية قسيمان : قسم يندمها ، والآخر يمدحها .

ولكن ينبغي أن لانظن أن بها تناقضاً ؛ كما قد يبدو للنظرة السطحية ، وإنما هذا الانقسام الظاهري : يأتي من نظرته إلى الحياة المادية من زاويتين مختلفتين ، ذلك أنه يريد أن يكشف لنا عن منهجه في الحياة ، وفلسفته فيها .

وربما كان انقسام المسلمين في الاتجاه نحو الحياة : من إقبال عليها ، وإدبار

(٢) سورة آل عمران آية ٧

(١) سورة النجم آية ٢٨

(٣) سورة سبأ آية ٤٦

عنها ؛ نتيجة انقسام هذه النصوص بهذا الشكل حول الحياة المادية .

وإذا شرحنا الزاويتين السابقتين : بدا لنا موقف الإسلام من هذه الحياة بوضوح .

أما الزاوية التي منها ذم الحياة الدنيا : فهي زاوية الماديين ، وهي أن هذه الحياة غاية ؛ لا وسيلة ، وأنها مستقلة لا صلة لها بحياة بعدها ، بل هي الحياة ، ولا حياة بعدها .

حين نظر إليها الإسلام من هذه الزاوية وبهذا الاعتبار : ذمها ، وذم المنهمكين فيها ؛ لأنها حياة عارضة زائلة ؛ مشتقتها أكثر من مسرتها ، فهي مليئة بالآلام ، والأحزان ، واليأس ، والخوف ، والاضطراب ؛ وما هي إلا لعب ولهو ، فهي بهذه الصورة ، وبهذه النظرة : لا تساوى شيئاً ، ولا جناح بعوضة ؛ بالنسبة لحياة مقدره للإنسان بعد موته ؛ لهذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « لو كانت الدنيا تعادل عند الله جناح بعوضة ماسق كافرأ مما شربة ماء (١) » .

حقاً إنها لا تساوى جناح بعوضة حين نقيسها بالحياة الآخروية .

من هذه الزاوية . ذم الإسلام هذه الحياة ، وذم الذين يتخذونها غاية لهم ، وجمع همهم ، ومبالغ سعيهم . فلا يرجون الآخرة من بعدها . قال تعالى : « الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً أولئك في ضلال بعيد (٢) » .

وكل الآيات والأحاديث التي تدم الحياة وأهلها إنما تدمها بهذا الاعتبار ومن هذه الزاوية .

يريد الإسلام بذلك : أن يبين للناس أنه لا ينبغي أن تتخذ هذه الحياة غاية

(١) أنظر تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى ج ٦ ص ٦١١ للإمام الحافظ أبي العلي محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوى مطبعة المدنى بالقاهرة

(٢) سورة إبراهيم ٣

في حياتهم ، لأنه أمر لا يليق بهم ؛ فقد خلقوا لهدف أعلى ، وغاية كبرى : هي تلك الحياة الأبدية السعيدة ، التي جاء وصفها في مئات من الآيات والأحاديث ، هذه الحياة : هي جديرة بأن يعمل المرء من أجلها ، وتحقيق أن تتخذ غاية !

والخلاصة : أن أية نظرة تجعل هذه الحياة غاية ؛ لهى نظرة سطحية ؛ لاتعلو على مستوى الحيوان في نظر الإسلام !

وأما الزاوية الثانية : فهى أن هذه الحياة ما هى إلا وسيلة لحياة أخرى ، ومقدمة لها .

فمن هذه الزاوية وبهذا الاعتبار نرى الإسلام يمدح الحياة ويهتم بها . وكان اهتمامه بها على النحو الآتى :

أولاً : تنظيمها تنظيمًا اجتماعياً ، واقتصادياً ، وسياسياً ، وقضائياً .

ثانياً : دعوته الناس إلى أخذ نصيبتهم من الحياة ؛ من أكل ، وشرب ، وزواج ، وملبس ، ومسكن ؛ وكل ما يحتاج إليه الإنسان بحكم الغريزة والطبع . بشرط أن تكون في نطاق الحدود التي رسمها .

قال تعالى : « وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واتقوا الله الذى أتم به مؤمنون (١) » ، كما ونح الذين يمنعون الناس من هذه المتعة التي أخرجها لعباده ، « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون (٢) » ،

وما أحسن هذه الإشارة هنا : التي تشير إلى أن نعم هذه الدنيا خلق للؤمنين وإذا اشتراك معهم الكفار فى التمتع به : فسوف لا يشتركون معهم فى نعم الجنة فى الآخرة ؛ نعم لا يخالطه غم ولا مشقة !

ولكن يجب ألا يكون التمتع على حساب الدين ؛ فينسوا حقوق الله عليهم :

من أداء العبادات ، والشكر له على نعمه ، وبنسوا الأخلاق الإنسانية ؛ في سبيل
هذا التمتع ولذة الدنيا !

لذا أمرهم الإسلام مقابل ذلك بالعمل « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله
والمؤمنون(١) » .

فالعامل واجب من أجل أداء حق الله ، وحق الإنسانية ، وحق الإنسان
نفسه : من كسب رزقه ، ووزق من تؤول إليه مؤنته في الحياة .

وعلى كل ؛ فعمل المؤمن : كله عبادة ؛ ما دام ينظر إلى هذه الحياة من هذه
الزاوية ؛ وسار على الطريقة التي رسمها الله له .

مصدق ذلك قول الرسول عليه الصلاة والسلام : ما معناه في شاب قوى
جلد ؛ قد بكر يسعى . حين قال أحد الجالسين معه : ويجه لو كان شبا به وجلده
في سبيل الله ؟ فقال الرسول — صلى الله عليه وسلم — « لا تقولوا هذا فإنه إن
كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسألة ، ويغنيها عن الناس : فهو في سبيل الله ،
وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم : فهو في سبيل الله » .

وهكذا تكون هذه الحياة كلها سبيل الله إلى الجنة : فمن سار فيها كما يأمره
الإسلام : فهو سائر في طريق الجنة ؛ التي أعدها الله تعالى للسالكين سبيله ؛ فهو
داخل فيها في نهاية المطاف ، بالوعد الذي قطعه الله على نفسه !

وبذلك تكون لهذه الحياة أهمية كبرى ، في نظر الإسلام ، وتعطى لها قيمة ،
لا يساويها شيء إلا تلك الحياة الأبدية !

ذلك أنها وإن كانت لا تساوي شيئاً في حد ذاتها ، بالنسبة لتلك الحياة ؛ إلا
أنها لما كان من الممكن أن تشتري بها الجنة ؛ فإن قيمتها تساوي الجنة بهذا الاعتبار !
من هذا : تبين لنا أنه لا تعارض بين هذه النصوص المتعلقة بشئون الحياة
الدنيا ؛ وأن النظريتين فيها تمثلان فلسفة الإسلام في الحياة ، ومنهاجه فيها .

ومن ثم : تبين لنا أيضاً أن الذين نبذوا الحياة الدنيا ، ولم يعطوا حق الجسم فيها : نصيبه الطبيعي منها ، ورضوا بالكسل والدعة والالتكال على الناس في الرزق ، استدلالاً على موقفهم هذا ، بالآيات التي تدم الحياة وطلابها ، فهؤلاء أخطأوا في فهم الإسلام ، وقصروا نظرهم على زاوية واحدة وغفلوا عن الأخرى .
ومن هنا ندرك أيضاً سبب خطأ بعض المستشرقين الذين قالوا : إن الإسلام دين مادي ؛ يدعو أهله إلى المتعة والزينة ، ومباهج هذه الحياة المادية .

* * *

بعد هذه الإشارة إلى الحياة العقلية والروحية والمادية في الإسلام : نرى أن الإسلام أدرك أولاً طبيعة التكوين الإنساني ، ثم لم ينس حق أى جانب من جوانبه في الحياة .

ولذا فقد أعطى له هذه الحقوق ، وشرع له منهجه فيها ؛ معتدلاً متوازناً ؛ فلم يرد أن يطنى العقل على الروح والجسم . ولا الروح على العقل والجسم . ولا الجسم كذلك ؛ كما فعلت الفلاسفات الأخرى .

بل إن الإسلام يدعو دائماً إلى التوازن في الحياة :

التوازن بين الحياة الروحية ، والحياة العقلية ، والحياة المادية .

التوازن بين الإيمان بالغيب ، والإيمان بالمحسوس .

التوازن بين طاقات الإنسان ومطالبها .

التوازن بين العمل من أجل الدنيا ، والعمل من أجل الآخرة .

قال الرسول — صلى الله عليه وسلم — « إن لنفسك عليك حقاً ، وإن لبدنك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً ، وأعط كل ذي حق حقه ،

حقوق الفرد والمجتمع

وتظهر فلسفة الإسلام : مراعاة التوازن بين حقوق الفرد والمجتمع ، بين المصالح الفردية ، والمصالح الاجتماعية ، بين الحقوق الفردية ، والحقوق الجماعية ، بين شخصية الفرد ، وشخصية المجتمع .

وقد وضع نظاماً معتدلاً في هذه الأمور كلها .

فهو لم يجعل المجتمع : هو الموجود الوحيد المنفرد ، وله كيان مستقل فقط ، والأفراد ليست لهم أية شخصية تذكر ؛ كما اتجهت إلى ذلك بعض النظم .

بل جعل الإسلام للمجتمع : شخصية وكياناً مستقلاً . كما جعل للفرد : شخصية مستقلة ، في دائرة خاصة ، داخل نطاق المجتمع .

وفقاً لهذه النظرة : حدد مصلحة المجتمع ، ومصالح الفرد ؛ فلم يجعل مصلحة الفرد تطفئ على مصلحة المجتمع .

ولأنما حدد مصلحة الفرد : بحيث لا تضر مصلحة المجتمع .

وكذلك لم يجعل مصلحة المجتمع تطفئ على مصلحة الفرد .

فإذا كانت هناك مصلحة للمجتمع ، وفيها ضرر على الفرد : فلا بد من تعويض الفرد عن حقه .

ومن هنا نعلم أن الإسلام لم يجعل الفرد مجرد وسيلة لاغراض اجتماعية ، أو لتحقيق مصلحة اجتماعية ؛ ولو كان في ذلك تلفاً للفرد وهلاكاً له .

كما لم يعط الإسلام للفرد : حرية مطلقة ؛ بحيث يعمل لصالحه فقط ؛ دون مراعاة مصلحة الجماعة ، إذ أن الأفراد قد يتحولون إلى قرصنة يمتصون دماء الجماعة ، يأخذون مكاسبهم بأية طريقة ، وبأى أسلوب .

الفصل الثاني

العوامل التي أدت إلى تشويه روح الإسلام

حاولنا أن نكشف في الصفحات القليلة السابقة : عن مدى احتياج الإنسانية إلى الإسلام ؛ كمنهاج لحياتهم ، وطريق لسعادتهم !
وفي سبيل ذلك : حاولنا إبراز روح الإسلام في بعض جوانبه ، وفلسفته فيها ، ثم ميزتها على الفلسفات والأديان الأخرى .
كما عرفنا مدى موافقته لفطرة الإنسان ، وطبيعة خلقته .

* * *

بيد أن هذه الروح : لم تبق على أصالتها في أذهان الناس ؛ بل شوهدت ، وتغيرت ؛ حتى اختلطت روح الإسلام بروح الأديان الأخرى ، وامتزجت بفلسفته بفلسفات الفلاسفة .

وعندئذ لا تبدو ميزة الإسلام على هذه الأديان والفلسفات ، ولم تعد تلائم فطرة الناس ، بعد هذا التشويه والتغير .

* * *

هذا التشويه : هو الذي جعل الناس يبتعدون عن الإسلام ، ويتهربون منه ؛ حتى إذا دعوا إليه ، وإلى السير على منهجه : عادوا الداعي ، ولم يلتفتوا إلى دعوته !
وإذا أردنا عودة الناس إلى الإسلام : فلا بد أن نزيل هذا التشويه عن منهاج الإسلام أولاً وقبل كل شيء .

ولكن لا يمكن ذلك : إلا بالتعرف على الأسباب والعوامل ؛ التي أدت إلى تشويهه .

لذا بات من واجبنا أن نبحث اليوم عن أهم العوامل ، التي أدت إلى تشويه روح الإسلام ، ثم نبين موقفنا ، وكيفية التخلص من هذه العوامل ؛ حتى تكون دعوتنا إلى الإسلام من جديد : دعوة صافية ، تبحث في روحه : بعيداً عن هذه العوامل وأثرها فيه .

السياسة

لعبت السياسة دوراً كبيراً : في تشويه روح الإسلام — منذ ظهوره إلى يومنا هذا — وذلك عند ما اتخذ الإسلام وسيلة لتحقيق المآرب الشخصية ، ومطية للوصول إلى أهداف دنيوية .

غير أن هذه الحقيقة : لا تبدو واضحة ؛ إلا إذا شرحنا السياسة وأنواعها : من سياسة المسلمين ، وسياسة الاستعمار ، وسياسة الاستشراق ، وبيننا دور كل واحدة منها في التشويه . عند ذلك يتجلى ما قلناه بوضوح .

سياسة المسلمين

ظهرت السياسة الإسلامية على مسرح الحياة أول مرة : بعد أن تكونت الدولة الإسلامية في المدينة ؛ بقيادة الرسول — صلى الله عليه وسلم — وعاشت الأمة الإسلامية تحت قيادته الرشيدة ؛ في وحدة سياسية ، ولم تظهر خلال عهده كله خلافاً ، تمثل جماعات إسلامية سياسية .

أو بعبارة أخرى أحزاب سياسية : تمثل اتجاهات مختلفة .

وبعد وفاته — عليه الصلاة والسلام — مباشرة : ظهر أول خلاف سياسي ؛ في اجتماع السقيفة : يمثل ثلاث جماعات : الأوس ، والخزرج ، والمهاجرين .

بيد أن ذلك لم يستمر ، ولم يؤد إلى التفرقة في صفوف الأمة ، واستمرت الحال أيضاً في هدوء وسكينة ؛ إلى آخر عهد عثمان — رضى الله عنه —

فبعد مقتله مباشرة : ظهرت الخلافات السياسية بين طوائف الأمة ؛ التي جلبت على الإسلام والمسلمين فيما بعد أضراراً بالغة الخطورة ، وآثاراً سيئة ؛ لا تزال تعاني منها الأمة إلى يومنا هذا !

ذلك أن الأمة قد انشقت بعد مقتله إلى حزبين : حزب يناصر علياً ،
والآخر يوالى معاوية .

ثم انقسم حزب علي إلى حزبين : حزب تشيع له ، وأخذ على عاتقه الدفاع
عنه والانتصار له ؛ وسمى شيعياً .

والآخر : خرج عليه ، وسمى هذا الحزب : خوارج .

وبذلك تكونت ثلاثة أحزاب : متخاصمة ومتحاربة . كل واحد يحارب
الآخر .

وجاء العباسيون بعد ذلك : يحاربون الأحزاب الثلاثة السابقة .

فكم من معارك دارت بين هؤلاء وأولئك ؛ حتى ذهب ضحيتها مئات
الألوف من أبناء هذه الأمة ؛ ما لو قاموا بحرب ضد العدوان الخارجي :
لأخضعوا رقاب الأعداء ، وفتحوا العالم ، ونشروا الإسلام في ربوعه .

كما أنهم لم يتجنبوا إراقة دماء المسلمين في سبيل تحقيق أغراضهم الشخصية ،
كما لم يتجنبوا اتخاذ الإسلام ستاراً أمام أطماعهم الفردية ، وأداة طيعة يؤولون
آياته ، ويضعون أحاديث مكذوبة .

كل ذلك لتثبيت اتجاهم ، وتحقيق مزاعمهم .

وقد أدخلوا مبادئ غريبة على الإسلام ثم صبغوها بصبغته لتكسب نصراً .

من هذه المبادئ والمفاهيم الدخيلة : ما ذكره الشيعة من أن علياً — رضى
الله عنه — وصى رسول الله — صلى الله عليه وسلم ، وأن الخلافة حق له ولبنيه
دون غيرهم من الناس .

وبذلك جعلوا الخلافة وراثية .

وقالوا : لأنه لم يمت . وتطرف بعضهم حتى قال : إنه نبي في التقدير ، وأخطأ
جبريل في التنزيل ، وزاد آخرون في تطرفهم هذا حتى أهوه .

ومن المفاهيم الغريبة على الإسلام : ما أتى به الخوارج ، من تكفير المسلمين ، وتحليل دمائهم وأعراضهم !

كما أدخل الامويون المبدأ الملسكى في نظام الحكم ؛ بدل الشورى ، فأصبح الحكم وراثياً لبني أمية ؛ فلا يناله غيرهم ، ولو كان أحق منهم وأجدر بهذا المنصب . وبذلك جلبوا على الأمة ويلات وقتناً .

وكل هذه المبادئ التي ذكرناها ، والتي لم نذكرها : لم يراع مبتدعوها عند وضعها حكم الإسلام ، ولا مصلحة الأمة ، وإنما راعوا مصلحتهم الشخصية ، وهدفهم الذاتى .

ثم ظهرت بعد هذه الأحزاب السياسية : مذاهب أخرى غير سياسية ، وإن كان ظهورها نتيجة لهذه الأحزاب : مثل المرجئة ، والمعتزلة ، والجبورية ، والأشعرية ، والماتريدية .

وبظهور هذه الفرق : ظهرت آراء ومفاهيم متعددة متناقضة .

وقد اتخذ الجدل والتأويل : وسيلة لتأييد فكرة ، أو للتغلب على الخصم في أحيان كثيرة .

كما ظهرت بحوث جدلية ، في موضوعات فرضية ؛ فكان ضررها أكثر من نفعها .

كما كان لحكم بعض الخلفاء دور كبير في تشويه روح الإسلام ، في أذهان كثير من الناس .

ذلك أنهم حينما كانوا يحكمون باسم الإسلام : كانوا يحكمون بالظلم والاستبداد ، وقتل الأبرياء ؛ إن اعترضوا طريقهم ، أو أوجسوا منهم خيفة .

مع أن الإسلام يمنع القتل بالشبهة ، ولكن هذا ما كان ليثير اهتمامهم ، بل كان يهمهم سلامة أنفسهم ودولتهم ؛ كيفما كان الأمر .

ومع ذلك : فهم صبغوا أفعالهم هذه بالصبغة الإسلامية ؛ وما كان لتؤثر

أفعالهم هذه في تشويبه حكم الإسلام ؛ لو أنهم لم يبرروها تبريراً دينياً ، ولم يسندوها إلى حكمه .

ولكن عند ما سلكوا هذا المسلك : أصبحت أفعالهم وصمة في جبين الإسلام ، بما دعا جماعة المستشرقين إلى القول بأن نظام الحكم في الإسلام : نظام دكتاتوري ، استبدادي : يعطى الحاكم حق الحكم المطلق ، فما يفعله الحاكم يقره الإسلام .

وهي التي جعلت المسلمين أيضاً يخشون من الحكم الإسلامي ؛ عندما يطالبون بإعادته إلى شؤون الحياة في العصر الحديث .

هذا ويمكننا أن نلخص في النقاط الآتية النتائج السيئة التي أدى إليها اتخاذ الإسلام وسيلة لأهداف سياسية . فيما يأتي :

أولاً : تشويه بعض الناس لروح الإسلام ، وذلك بتأويلات بعيدة لنصوصه ، وبإدخال مبادئ ليست منه .

والهدف الأساسي من ذلك : هو إثبات مواقفهم المنحرفة ، وتبرير اتجاهاتهم المخالفة للإسلام باتخاذ سنداً لها .

ثانياً : تفريق الأمة : إلى فرق وأحزاب كثيرة ، متعددة الأهداف ، مختلفة الأشكال ؛ حتى كان هدف بعضها : حرب الإسلام والمسلمين ؛ مستتراً وراء شعارات إسلامية .

ثالثاً : أنها أوجدت ثغرات لينفك منها الأعداء سموهم ضد الإسلام والمسلمين .

رابعاً : ابتعاد المسلمين عن دينهم ، ثم عزل الإسلام عن مجال الحياة .

سِيَّاسةُ المِستَعْمَرين

لقد استرعت أنظار الأعداء : الحالة التي صار إليها المسلمون — نتيجة للسياسة السابقة — من ابتعادهم عن دينهم ، وعدم تمسكهم بوحدتهم ، وكثرة فرقهم وخلافاتهم فيما بينهم .

كذلك رأوا أن الحالة التي آل إليها أمر المسلمين لا تساعدهم على الدفاع عن أنفسهم ، ومن ثم يمكن أن يندسوا بين صفوفهم ؛ ليزيدوا الطين بلة .

من أجل هذا : اتجهوا إلى احتلال البلاد الإسلامية ، وابتلاعها شيئاً فشيئاً .

فاحتلوا أولاً الأندلس ، ثم الهند والجزائر ؛ وهكذا حتى وقعت البلاد الإسلامية كلها في قبضتهم ؛ إلا بعض الأجزاء البسيطة منها .

ولكن الاستعمار لم يأمن على استقراره وبقائه : لأن المسلمين ، وإن آلوا إلى هذا المصير ؛ فإن الإسلام ما دام له حيوية ، وقرآن يتلى عليهم بالمفهوم السابق ؛ فلا بد يوماً أن يوقظهم من سباتهم ، فينفضوا الفتور والأوهام ، ويعيدوا مجدهم ، وسلطانهم ، ووحدتهم كما كانوا من قبل .

إذن : ماذا يصنعون ؟ فاتخذوا قراراً وهو : أنه لا بد من بذل الجهد لتشويبه روح الإسلام ، ولا بد من تشكيك المسلمين في عقيدتهم ، وفي قيمة مبادئهم الدينية ، حتى تموت روح العاطفة الدينية في نفوسهم .

وحاولوا في نفس الوقت : رفع قيمة مبادئهم فوق المبادئ الإسلامية .

ومن أجل الوصول إلى هذه الغاية اتخذوا الخطوات الآتية :

لمثارة الخلاف بين الفرق الإسلامية .

تشجيع رجال الدين : غير الإسلاميين ، على النيل من المبادئ الإسلامية ،
والانتقاص منها .

خلق مذاهب بشعارات إسلامية ، يرأسها بعض الأفراد المنحرفين ، المنتسبين
إلى الإسلام . هدفها : نقد الإسلام بالباطل ، وخلق آراء وتفسيرات للإسلام :
تخالف روحه ، وتشوه جوهره .

ودور انجلترا في الهند وباكستان : يمثل هذا الاتجاه خير تمثيل ، فإنها إبان
استعمارها هذه البلاد : حثت أولاً رجال الدين المعادين للإسلام على الطعن
في المبادئ الإسلامية ، إلى جانب دعايتها المغالية للمسيحية .

ثم عملت على خلق مذهب ، يخضع لحكمها ، ويسير وفقاً لها .

وقد اصطنع السيد أحمد خان لهذا الغرض ، فبدأ هذا العمل يعمل دوره
الحسيس ضد الإسلام ؛ باسم التقدمية ، وتحت شعارات إسلامية أطلقها على
جماعته ومجلته .

فن أعماله : أنه فسر القرآن على أساس المبادئ الطبيعية ، وفي سبيل ذلك
ارتكب أخش التأويلات ؛ بعد أن حرف كثيراً من المفاهيم الصحيحة عن
مواضعها .

وأصدر مجلة باسم : تهذيب الأخلاق . فكان لا ينشر فيها إلا ما يثير الشقاق
بين المسلمين ، ولا سيما بين مسلمي الهند والعثمانيين ، وجهر فيها بخلع الأديان .

ولا يقصد منها إلا الإسلام .

ولهذا سمي أتباعه بالدهريين ، أو الطبيعيين .

كما أنشأ مدرسة سماها المدرسة المحمدية : لتثنية أبناء المسلمين على أفكاره السامة .

ولسكن مهما كانت آثاره واضحة ؛ فإنه لم يستطع تحقيق كل ما كانت ترجوه
انجلترا من وراء حركته .

ولهذا اتجهوا من جديد : لإنشاء مذهب آخر ؛ عرف بالمذهب القادياني ،
ومؤسسه : ميرزا غلام أحمد .

فقد ادعى هذا أنه نبي ؛ حل فيه روح عيسى ومحمد ، ليفسح المجال لهؤلاء
المستعمرين المسيحيين ؛ حتى يتخللوا صفوف المسلمين أولاً ، وليجدوا الاستقرار
والأمان في ديار المسلمين ثانياً .

ثم ادعى أنه أوحى إليه ، كما ادعى أن الجهاد ليس معناه العنف والقوة ،
ولأنما هو وسيلة للإقناع .

وذلك ليميت روح الجهاد والمقاومة في نفوس المسلمين .

وأخيراً دعا المسلمين إلى الولاء للإنجليز ، وإلى إطاعة حكهم .

بعد هذا أنشأ مذهباً آخر ، وعرف بالأحمدية ؛ لخدمة أغراض الاستعمار
الإنجليزي ، سواء كانت هذه الخدمة بطريقة مباشرة ، أو غير مباشرة .

من هذا كله يبدو لنا بوضوح أنه كان هناك للاستعمار غرضان هامان من
وراء هجومه على الإسلام بالوسائل المختلفة :

أحدهما : تشويه روح الإسلام . وثانيهما : الاستقرار في الوطن الإسلامي :

سِيَّاسةُ المُسْتَشْرِقِينَ

قبل بيان الدوافع التي دفعت المستشرقين إلى دراسة الإسلام ، وأهدافهم منها ؛ نود أن نعرفهم ، ونعرف أصولهم .

فالمستشرقون هؤلاء ، الذين درسوا العلوم الإسلامية ، من الذين لا يدينون بالإسلام ، والذين بحثوا عن أصلهم : وجدوا أكثرهم يهوداً ، ثم يليهم في الكثرة المسيحيون .

أما الدوافع التي دفعتهم إلى دراسة الإسلام فهي ما يلي :

أولاً : محاولتهم دراسة اللغة العبرية ؛ باعتبارها لغة نصوص الديانة المسيحية .

وهذا قادم إلى دراسة اللغة العربية ؛ لوجود اشتقاق بينهما .

وبعد هزيمة الصليبيين وقيام إصلاح ديني في أوروبا . بدأوا يهتمون بدراسة الإسلام .

ثانياً : القيام بالتبشير ؛ لنشر المسيحية بين المسلمين .

وهنا اتصلت مصلحة المبشرين بالمستشرقين من جهة ، واتصلت مصلحة المستعمرين بالمستشرقين والمبشرين من جهة أخرى .

ذلك أن المستعمر والمبشر : احتاجا إلى المستشرقين لأنهم يعرفون الإسلام ولغته ، فيعرفون كيف يدسون عليه .

وبذلك ازداد نشاطهم ، وزاد اهتمامهم بدراسة الإسلام .

ثالثاً : حب الاطلاع على الثقافة الشرقية (دينية كانت ، أم أدبية ، أم تاريخية)

رابعاً : تشكيك المسلمين في دينهم ، وتضليلهم .

وأكثر من اتجه نحو هذا الاتجاه (١) من المستشرقين ، هم مستشرقوا اليهود .
ثم المسيحيين .

وليس ما نراه اليوم عند هؤلاء بغريب علينا ؛ إذ أن هذا كان غايتهم
من قديم الزمان .

ولقد كشف لنا القرآن غايتهم هذه . فقال تعالى « ود كثير من أهل
الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من
بعد ما تبين لهم الحق (٢) » ، « ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب
يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل (٣) » ، وغير ذلك من الآيات
الكثيرة التي نبهتنا إلى نواياهم وأهدافهم السيئة نحو المبادئ الإسلامية .

هذه هي الدوافع التي أدت بهم إلى هذا الموقف من الإسلام ؛ بعد تطورات
في الأهداف .

وأما أهدافهم في العصر الحديث ؛ فتنحصر في الهدفين المهمين الآتيين : —

الأول — هو محاربة الإسلام ومحوه من الوجود — إن أمكن — وإلّا فيإبعاد
المسلمين عنه على الأقل .

الثاني — هو إبقاء المسلمين في تأخرهم ، وخلق التخاذل الروحي في نفوسهم ؛
وذلك بالوسائل المختلفة التي ذكرنا بعضها فيما مضى ، وسندكر بعضها
الآخر فيما يأتي (٤) :

(١) أنظر كتاب الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي للدكتور

محمد البهي ص ٥٢٢

(٣) سورة النساء ٤٤

(٢) سورة البقرة ١٠٩

(٤) أنظر الكتاب السابق للدكتور محمد البهي ص ٣٩ .

ولتحقيق الهدف الأول : اتخذوا الوسيلتين الآتيتين : —

الأولى : نقد قيمة المبادئ الإسلامية ؛ بالوسائل الخداعة ، والدعاوى الباطلة ،

فمن ذلك قولهم : إن محمداً ليس رسولا ، وإن القرآن ليس كتاباً
منزلاً من السماء ، وإنما هو نسخة نسخة محمد من كتابي العهدين القديم
والجديد (التوراة والإنجيل)

وأن الإسلام ليس ديناً ؛ لأنه يدعو إلى التمتع بلذائذ الدنيا ،
ويتدخل في تنظيم حياة الناس من جميع الجوانب . فالدين لا يتدخل في مثل
هذه الأمور ، وإنما الدين الحقيقي لا يهتم إلا بجانب العبادة ، أو
الجانب الروحي من حياة الإنسان .

ومن ذلك أيضاً قولهم : إن المبادئ الإسلامية غير صالحة للتطبيق
على الواقع ، في العصر الحديث ؛ لأنها تدعو إلى الدعة ، والسكسل ،
والتأخر ؛ لارتباطه بالقضاء والقدر . وغير ذلك من الدعاوى الباطلة
التي يدرك بطلانها من كان عنده أدنى لإمام بحقائق المبادئ الإسلامية .

والثانية : رفع شأن المبادئ المسيحية ؛ وجعلها مقياساً عاماً لمبادئنا فإنهم أسقطوا
قيمة المبادئ الإسلامية ؛ حتى أخرجوها من الدين . وقالوا بأنها غير
صالحة للتطبيق على الواقع ، ورفعوا قيمة مبادئهم ؛ حتى جعلوها مقياساً
عاماً لمبادئ الإسلام . فإن وافق مبدؤنا مبدؤهم ؛ يقولون : إنه مبدأ
سليم . وإن خالف : فهو باطل .

وقد أشار القرآن إلى اتجاههم هذا فقال : « أفكلما جاءكم رسول بما
لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون (١) » ، وقال أيضاً
« أفتمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض (٢) » ،

فكان كل مبدأ من مبادئهم : حق لا يتطرق إليه الشك ، وكل مبدأ
من مبادئنا لا يتفق معها : باطل .

وعما يؤسفنا : أن نرى بعض دعاة الإسلام — ولا سيما المثقفين منهم — قد تأثروا باتجاه المستشرقين ؛ فهم حين يرون مبدأ إسلامياً ينقده المستشرقون ؛ لعدم موافقته لأحد مبادئهم ، يقومون بمحاولات بعيدة عن روح الإسلام : للتوفيق بينهما .

كما نجدها في تعدد الزوجات ؛ حين وجدوه لا يوافق ما عندهم . فقالوا : إن آية التعدد وإن أباحت التعدد ؛ إلا أن الآية الثانية وهي « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم (١) » ، تنزل الإباحة منزلة الحرام .

ولو أنهم خطوا خطوة أخرى لقالوا : إن الآية الثانية نسخت الأولى .

مثل هذه المحاولات المتأثرة باتجاه المستشرقين ؛ نجد أمثالها كثيراً لدى المسلمين ، في كثير من القضايا الإسلامية ومبادئها . وهذا الاتجاه منهم أخطر على الإسلام من عمل المستشرقين ، واتجاههم نفس الاتجاه ؛ إذ أنهم بذلك يجعلون مبادئ المستشرقين : مقياساً لمبادئنا ؛ من حيث لا يشعرون .

ثم أن هذا إن دل على شيء ؛ فإنما يدل على قلة الاعتزاز بالإسلام ؛ والغفلة عن أغراض المستشرقين وخدعهم .

ومن وسائل خداع المستشرقين أيضاً : تظاهرهم في وصف بعض المبادئ الإسلامية بمظهر المنصف العادل ؛ لنصدقهم في وصفهم الجائر للمبادئ الأخرى . وفي ذلك تشويه ما بعده تشويه . إذ أن بعض المبادئ يكون بذلك حقاً ، وبعضها الآخر باطلاً في أذهان الناس .

ومنها أيضاً إنشاؤهم أكاديمية علمية للمقارنة بين الأديان ، وإعلانهم عنها بأنهم سوف لا يخضعون في أحكامها وقراراتها للأهواء والعواطف الدينية بل سوف يعطون كل ذي حق حقه ؛ كما تهديهم إليه عقولهم وبحوثهم الخاصة لقوانين البحوث العلمية ؛ المجردة من التعصب والانحياز .

(١) سورة النساء : ١٢٩ .

مع ذلك نرى أكاديميتهم الغلبية — كما يقولون — لم تغير الزاوية التي كانوا ينظرون منها إلى الإسلام قبل ذلك .

ولا تزال أحكامهم تشعر بأنها صادرة عن التعصب ، والتحيز إلى دينهم ، فإنهم ما داموا قد جعلوا مبادئهم مقياساً عاماً — حتى في أكاديميتهم — فلا يمكن أن تظهر الحقائق أو يصلوا إليها ، وبالتالي فلا يوثق بما يصدر من النتائج الغلبية فيها .

إذن : لا بد من أن نحدد موقفنا منهم ؛ وذلك بالأنا نصدق ما يصدر من ؛ لظهور سوء نياتهم ، وقلهم للحقائق ، وتغطيتها بالأباطيل ، وأن نعتبر مبادئ الإسلام : مقياساً وميزاناً للمبادئ الأخرى ، ولا نكون بذلك دوجماطيين (١) على حد تعبيرهم ؛ بل هم دوجماطيون في الحقيقة ؛ فإنهم يتظاهرون بمظهر من يجب الفكرة الفلسفية الحرة ، والاتجاه الفلسفي في البحوث ؛ الذي لا يرى إلا الوصول إلى الحقائق ؛ فإذا بنا نراهم رأى العين : دوجماطيين في فكرتهم ، وفي اعتقادهم ، وفي بحوثهم ؛ لا يخضعون للحق وإن ظهر أمامهم كالشمس ، ويتمسكون بمبادئهم ولو كان بطلانها واضحاً .

إلى جانب هذا لانقف سلبين ، ولا نكتفي بمجرد الدفاع ، بل نتخذ أسلوب الهجوم الدفاعي :

ندافع عن ديننا ؛ وفي نفس الوقت نهاجم مبادئهم المحرفة عن أصل المنهاج الإلهي ، واتجاهاتهم الخادعة .

كما نبين في نفس الوقت حكمة مبادئنا ، وفلسفتها الحقيقية .

نعم ما كنا بحاجة إلى هذه الردود ، وكان من الممكن أن نتركهم وما يخوضون ؛ ولكن هجومهم الجائر على الإسلام والمسلمين : لا يتردد صده بين المستشرقين وحدهم ؛ لأنهم يعلنونه بين جماهير شعوبهم ، بل يتخطون حدودهم ؛ فينثرون

(١) الفلسفة الدوجماطية : هي شدة التعصب لآراء معينة ولا يرى معتقها غيرها . وكان ما يراه وما يعتقد هو الحق لاحق غيره .

قدحهم واتهاماتهم بين الأمم كلها ، فهذا يجعلون الناس يكرهون الإسلام والمسلمين .
من أجل هذا وذاك : لا بد من أن نناقشهم ، ونرد عليهم بكل شجاعة واعتزاز ؛
ثم نقارن بين مبادئنا ومبادئهم ؛ حتى يرى هؤلاء وأولئك : مدى سمو مبادئنا ،
ورفعة شأنها ، وعلوها من جميع الجهات .

وأعتقد أننا لو استطعنا إظهار فلسفة الإسلام — كما هي — فإنها كفيلة
بدحض كل الحجج ضدها ، وإخضاع كل متكر لها .

لهذا فعلينا أن نحدد موقفنا إزاء السياسة بوجه عام ؛ بما يأتي : —

١ — عدم اتخاذ الإسلام في أى موقف من المواقف : وسيلة لأغراض سياسية ،
وإعلان الحرب على من يتخذها وسيلة لها !

٢ — عدم التعاون مع أى حزب ، أو طائفة ، أو مذهب ؛ يتخذ الإسلام
شعاراً له إلا بعد البحث عن حقيقته ، وأهدافه البعيدة ، والدوافع التي
دفعته إلى تكوينه ؛ لنعرف مدى صلته بالإسلام ، وإخلاصه له .

لأننا قد عرفنا كثيراً من الجماعات : أضرت بالإسلام والمسلمين ؛
باسم الإسلام .

٣ — أن نكون على حذر تام من الأعداء ؛ ولا سيما المستشرقين ، ومن الذين
يدعون إلى الإسلام ، ولهم صلات بأعداء الإسلام ؛ لأن أعداء الإسلام
من سياستهم : اتخاذ العملاء لهم من المسلمين ؛ لقضاء مآربهم بواسطتهم ؛
ضد الإسلام والمسلمين .

الفلسفة

وكانت الفلسفة : هي العامل الثاني من العوامل التي أدت إلى تعقيد روح الإسلام ، وتشويه جوهره .

ذلك أنها عند ما انتقلت إلى العالم الإسلامي ، بواسطة الترجمة ؛ فإنها قد أثارَت موجة من الشك ، انتشرت في جميع الشعوب الإسلامية .

وكان هذا الشك الذي أثارته : شاملاً لجميع جوانب الإسلام ، وكل القيم والمبادئ التي جاء بها .

وليس هذا ببعيد عن الفاسفة ؛ بل إنه نتيجة ضرورية لها في بداية الطريق ، أو المرحلة الأولى من إنشائها .

لأن من منهجها : الشك في قيمة الشيء ؛ قبل أن تصدر حكمها عليه .

وبذلك تجعل نفسها حاكماً عاماً على كل القيم ، بل على الوجود كله أيضاً .

وكانت الطامة الكبرى على الإسلام والمسلمين : حين عظمها العلماء الذين اشتغلوا بها وأعطوها حق هذه السلطة العليا ؛ كما فعله البعض . أو رفعوها إلى منزلة الإسلام على الأقل ؛ كما فعله البعض الآخر .

عند ذلك حاولوا التوفيق بين الإسلام والفلسفة ، بين المبادئ الإسلامية والمبادئ الفلسفية ، واتخذوا منهاج الفلسفة ، وبراهينه : في الاستدلال على العقائد الإسلامية ، وإزالة التشنهات والشكوك في الأمور الكلية أو الجزئية ؛ التي أثارها الفلسفة ، أو أثاروها هم أنفسهم بسببها .

وياليتهم نجحوا في التوفيق بين الفلسفة والإسلام في كل المواضع التي حاولوا التوفيق فيها .

وياليتهم استطاعوا إزالة الشكوك عن المواضع التي شككت فيها ، بطريقة مقنعة .

بل في سبيل التوفيق حرفوا بعض المفاهيم الإسلامية عن مواضعها حيناً وقد أدخلوا في الإسلام من المبادئ الفلسفية حيناً آخر .

وفي سبيل دفع الشكوك والشبهات ، التي أثارها الفلاسفة : أثاروا شبهات أخرى ؛ بطريقة جدلية ، اتخذوها أسلوباً لهم في الدفاع والنقاش .

وفي هذه الحالة : اتسعت شقة الخلاف بين العلماء ، وكثرت الفرق في الأمة ، وبقي كثير من الناس في حيرة من أمر دينهم ، وبذلك تحققت كهانة أحد مطارئة قبرص ، عند ما استشاره رئيسهم في إرسال هذه الكتب الفلسفية إلى المأمون ؛ حين طلبها منه .

قال : الرأي أن نستعجل بإنفاذها إليه ؛ فما دخلت هذه العلوم العقلية على دولة شرعية : إلا أفسدتها ، وأوقعت بين علمائها . فأرسالها إليه (١) .

وليس معنى ذلك : أن الإسلام يخالف العقل أو الفلسفة ؛ وإن خالف عقلية بعض الأفراد .

(١) أنظر التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية للدكتور شبلي ج ٣ ص ٢٣٠ .
ولست أقصد من ذكر هذه القصة أن حركة ترجمة العلوم الفلسفية زمن الخليفة المأمون قد نمت نتيجة تخطيط كهنوتي مسيحي إذ أن صيغة الاستشهاد لا تدل على هذا ولأن قبرص لم تكن المصدر الوحيد لهذه الكتب ثم إن المشجع على الترجمة ونقل هذه الكتب كان هو الخليفة المأمون وإنما أقصد وجود التشكيك في طبيعة هذه العلوم الفلسفية واستغلالها ضد الإسلام أدى إلى نتائج سيئة .

لأن عقلية الأفراد جزئية ، لا تمثل مفهوم العقل ككل ؛ وإلا لما كان هناك اختلاف بين الناس عامة ، وبين الفلاسفة بوجه خاص .

وليس في استطاعة أحد الاستدلال على أن فلسفة رجل معين ، أو عقلية : يمثل العقل بمفهومه الكلي .

إذن لا نستطيع أن نقول : إن الإسلام يخالف العقل أو الفلسفة ؛ إذا خالف عقل رجل معين أو فاسفته .

وإذن ليس من الحكمة أبداً محاولة التوفيق بين الإسلام والفلسفة في كل موضع ؛ إذا بدأ هناك تعارض ، وأنه من الخطأ أيضاً محاولة إخضاع المفاهيم الإسلامية كلها ؛ للمفاهيم الفلسفية . إذ لا يكون ذلك في كثير من الحالات ؛ إلا بحمل النصوص الإسلامية ؛ على ما لا تطيق ، وتأويلها تأويلاً بعيداً عن روحه . وهذا لا شك إخراج للدين عن طبيعته السهلة المستساغة ، لدى العامة والخاصة ؛ إلى مفاهيم معقدة .

وكان دافع العلماء إلى التوفيق . هو اعتقادهم عصمة الفلسفة ؛ إلى جانب اعتقادهم عصمة الإسلام .

وإذا كانت الفلسفة حقاً ، والإسلام حقاً ؛ فلا بد أن يتفقا .

ولهذا حاولوا التوفيق بين المبادئ الإسلامية والمبادئ الفلسفية من جهة ، وبين آراء الفلاسفة المختلفة أو المتناقضة من جهة أخرى .

وكان الفارابي ، وابن سينا ، وابن رشد ، وإخوان الصفا ؛ أشخاصاً بارزين بين الذين سلكوا في هذا الاتجاه .

الاتجاه نحو التوفيق بين الدين والفلسفة ؛ مع تفاوت بينهم في الإدراك والمحاولة .

وقد أخذت صورة التوفيق : نمطين مختلفين :

النمط الأول :

وهو عبارة عن شرح الحقائق الدينية المجملة ؛ بالآراء الفلسفية المفصلة .

فابن سينا مثلاً : يفسر قوله تعالى « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة ، الزجاج كإنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم (١) ،

فإنه فسر هذه الآية بالفكر الفلسفية الافلاطونية المحدثة .

ففسر النور : بالخير ، والسموات والأرض : بالكل . والمشكاة : بالعقل الهيولانى (٢) ، والمصباح : بالعقل المستفاد ، والزجاجة : بالواسطة ، وشجرة مباركة زيتونة : بالقوة الفكرية ، ولا شرقية ولا غربية : فسرهما بلا القوى المنطقية ولا القوى البهيمية ، والنار : فسرهما بالعقل الكلى المدبر للعالم المشاهد (٣)

وهنا مثال للتعسف فى تأويل هذه الآيات ، وتحويل معانيها السهلة ، إلى اصطلاحات فلسفية معقدة .

كما ندرك مدى التشويه الذى يطرأ على معانى الآيات بهذه التفسيرات البعيدة عن روح الإسلام .

(١) سورة النور : ٣٥ (٢) رسائل ابن سينا فى الحكمة والطبيعات

(٣) العقول أربعة « ا » العقل الهيولانى « ب » العقل بالفعل « ج » العقل المستفاد « د » العقل الفعال — أما العقل الهيولانى : فهو قوة مستعدة لقبول ماهيات الموجودات أو المعقولات ، والعقل بالفعل : فهو نفس العقل قد اتحد بالصورة العقلية ، ثم انتقلت إلى الفعل ، والعقل المستفاد : هو العقل بالفعل ، فأصبح مستفاداً — عندما أدرك الصورة العقلية ، والعقل الفعال : هو العقل الذى يفيض من النفوس الإنسانية .

وإخوان الصفا ؛ قد فسروا : العرش ، والكرسى : بالأفلاك ، فالكرسى : هو الفلك الثامن ، وهو ملك الكواكب الثابتة الواسعة ، المحيطة بالأفلاك السبعة تحتها ، أدناها القمر ، ويليه عطارد ، وفوقه الزهرة ، ومن بعده الشمس ، ثم المريخ ، ثم المشتري ، ثم زحل .

كما فسروا السموات السبع بهذه الكواكب السبع المتحركة ، والعرش : هو الفلك التاسع الثابت ، المحيطة بجميع الكواكب الثمانية تحته (١) .

كما سار على هذا المنوال : الفارابي ؛ في تفسير بعض الآيات ، والمفاهيم الإسلامية .

ومن أراد الإطلاع على تفسيرات هؤلاء بالتفصيل : فليرجع إلى كتبهم ؛ ليقف تماماً على مدى التعسف الذي ارتكبه من أجل التوفيق .

النظ الثاني :

وهو تأويل الحقائق الدينية ؛ بما يتفق مع المبادئ الفلسفية .

وهذا النمط : أخطر من سابقه ؛ لأنه يؤدي إلى الخلط والمزج ، بين الدين والفلسفة ، وبالتالي يؤدي إلى تغيير طبيعة كل واحد منهما .

وكان على رأس الذين اتجهوا هذا الاتجاه في التوفيق : الفارابي ، وابن سينا ، ثم ابن رشد ، غير أن توفيقه : أدق وأبعد عن التعسف والشطط ؛ الذين وجدناهما عند السابقين .

فقد حاول الفارابي : التوفيق بين رأى الإسلام في حدوث عالم ، ورأى الفلسفة في قدمه .

فقال مرة : بحدوثه ؛ باعتباره أثر الله ؛ وذلك إرضاء للدين .

(١) رسائل لإخوان الصفا القسم الثاني ص ١٧ الرسالة السادسة ص ٨١ مطبعة بامباي .

وقال مرة : بقدمه إرضاء للفلسفة .

وذلك باعتبار أن العالم حدث لاني زمان ؛ فهو في التصور الزماني : قديم .

ومثل هذه النتيجة المضطربة ، التي انتهى إليها في محاولته في هذه النقطة : كانت النتيجة التي وصل إليها في كثير من الموضوعات ، مثل الثنائية (١) بين الفلسفة والدين ، وطبيعة النفس ونظرية الفيض ؛ وما إلى ذلك من الموضوعات التي فشل فيها فشلاً ذريعاً .

وما فشل إلا لمحاولته التوفيق بين رأيين متناقضين .

هذه بعض الامثلة قدمناها ؛ لتكون لدينا دليلاً على صدق ما ندعى من أن اتجاه التوفيق بين الإسلام والفلسفة في كل موضوع : اتجاه خاطيء ؛ قد أدى إلى تعقيد الإسلام ، كما أدى إلى تعقيد الفلسفة في نفس الوقت .

ومن تأثر بالفلسفة أيضاً : كثير من علماء الكلام ، أو التوحيد ؛ وكان تأثرهم هذا واضحاً كل الوضوح في برهنتهم على وجود الله ، وعلى وحدانيته .

إذ أنهم في استدلالهم على وجود الله : تأثروا إلى حد كبير بالأدلة الفلسفية الموروثة ؛ وكادوا أن يقصروا نظرهم عليها ، وأن يكتفوا بها .

ذلك أننا عند ما نستقرئ أدلتهم على وجود الله : نجد أنها تهتم وتعتمد على دليل جوهر الفرد ، ودليل الإمكان أو الوجوب ، ودليل العلة والحدث ، وما أشبه ذلك .

وهذه الأدلة الفلسفية : أدلة معقدة ، جامدة ، بليدة ؛ لا تشير النفس ، ولا تقوى الإيمان .

(١) أراد التوفيق بين رأى الإسلام في الوجود ، وهو عبارة عن الله والعالم الخارجي ، وبين رأى ارسطو فيه بأن الوجود عبارة عن المادة والصورة المتلاحمين ، فقال : الوجود عبارة عن وجوب لم يسبق بإمكان ، والإمكان ؛ سواء وجد بالفعل أو لم يوجد .

وبعبارة أوضح فإنها لا تتخلق في النفس الإيمان القوى ، الإيمان الحى ؛
النابض .

ومن جهة أخرى فإنها غير مستساغة ، لا تتلاءم مع عقلية العامة ، ولا يهضمها
الإكبار العقول .

وأحياناً تترك في جوانبها : الشكوك والحيرة ، وتؤدى إلى جدل عقيم .

أما الأدلة التي اعتنى بها القرآن ، والتي لم تلق من هؤلاء كبير الاهتمام : هي
دليل الاختراع ، ودليل العناية .

هذه الأدلة : هي أدلة القرآن ؛ لأنها أدلة عامة تلائم جميع العقول ، ولا تترك
في جوانبها شيئاً من الشكوك .

إضافة إلى هذا : فإنها أدلة حية ؛ تتخلق إيماناً حياً .

وكما تأثروا بالمنهج الفلسفى فى الاستدلال على وجوده تعالى : تأثروا أيضاً
بالجدل المنطقي ؛ فى مناقشة العقائد الإسلامية : فبحثوا عن أمور فى العقيدة ، كانوا
فى غنى عنها . مثل هل الصفة : عين الموصوف ؛ أم هى زائدة عليه ؟ وهل
الوجود : عين الموجود ؛ أم غيره ؟ وهل صفات الله : قديمة ؛ أم حديثة ؟ وهل
كلام الله : قديم ؛ أم حادث ؟ وهل يخلق الله بإرادة قديمة ؛ أم حادثه ؟

وفى سبيل الإجابة عنها : قدموا فروضاً عجوزوا عن الوصول إلى نتيجة مرضية
فى كثير من الموضوعات ؛ مثل هذه البحوث فى مثل هذه الأمور التى تدور حول
العقيدة ، قد أدت بهم إلى التفرقة فيما بينهم وبين أتباعهم أيضاً وإلى تعقيد العقيدة
الإسلامية ؛ بعد أن كانت سهلة واضحة .

كما أن هذه التصرفات قد استفدت منهم مجهودات عقلية لو بذلوها فى ميدان
العلم التجريبي : لقطعوا به مرحلة واسعة النطاق ؛ فأفادهم فى حياتهم المادية من جهة ،

وأفادهم أيضاً في الوقوف على آيات الله في الكون ؛ من جهة أخرى (١) .

من أجل هذا : فإن الصحابة — رضى الله عنهم — كانوا يتجنبون البحث في هذه الأمور ؛ وكانوا يعنون بذشر الإسلام بين الشعوب ، والتفكير في الآيات الكونية ، إلى جانب عملهم من أجل دينهم .

ولهذا عاشوا متحدين أقوياء الإيمان ، عمليين بدلا من أن يكونوا جدليين .

وكما تأثر بالفلسفة علماء الكلام ؛ كذلك تأثر بها الصوفية : فأدخلوا في الإسلام من المفاهيم الفلسفية ، والتصورات الفلسفية البعيدة عن التصور الإسلامى ومفاهيمه .

وسوف نشرح هذا بشيء من التفصيل في موضوعه الخاص .

ولست أريد بنقد هذا الاتجاه الخاطيء من العلماء : التشنيع عليهم ، والنيل منهم ، والتقليل من جهودهم ؛ في سبيل الإسلام .

فإننى إن كنت نقدهم في عمل من أعمالهم ، أو اتجاه من اتجاهاتهم ؛ في موقف معين ، أو إزاء دراسة معينة ؛ فليس معنى ذلك أننى أنقدهم في كل موقف وقفوا فيه ، أو في كل عمل عملوه .

ولا أقول : إنهم منحرفون عن الدراسة الصحيحة عن قصد ؛ وإنما أقول : ربما أرادوا الصواب : فأخطأوا الطريق الذى يوصلهم إليه ، وأرادوا الدفاع عن الإسلام : فاتخذوا وسيلة ظنوا أنهم بذلك يستطيعون الدفاع بها ، فكانت عكس ما توهموه .

(١) يقول الإمام الغزالي في نقده للمتكلمين « لما نشأت صنعة الكلام وكثر الخوض فيه وطالت المدة تشوق المتكلمون إلى البحث عن الجواهر والأعراض وأحكامها ولكن لما لم يكن ذلك مقصود عليهم لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى فلم يحصل منه ما يبحو بالكلية ظلمات الحيرة في اختلاف الخلق ، أنظر كتاب المنقذ من الضلال ص ١٥ مكتبة الجندي بمصر .

وإن كل ما أريده : هو تنبيه علماء اليوم إلى الاتجاه الخاطيء ؛ حتى لا يقعوا فيما وقع فيه السابقون ، وليبعدوا الإسلام عن المفاهيم المعقدة ؛ التي لحقت به من جراء خطئهم .

بعد هذا أود أن أبين أيضاً : أننى لست عدواً للفلسفة ، ولست من المانعين لقرائها وتدريسها ؛ بل إن الفلسفة فى نظرى قد تساعدنا على فهم فلسفة الإسلام ، كما تساعدنا فى فهم كثير من القضايا الإنسانية فى مراحل تاريخها الطويل ، ومدى تطور التفكير الإنسانى ؛ كلما يقطع مرحلة من مراحل حياته .

هذا إلى أنها تسمو بالفكر الإنسانى على مستوى المحسوسات ، وتأخذ بيده ليطوف به فى أجواء خارج هذا العالم المحسوس .

إن كل ما أريده : هو عدم الخلط بين الفلسفة والإسلام ؛ بين معنى المبادئ الإسلامية ، وبين المبادئ الفلسفية ، بين التصور الإسلامى ، وبين التصور الفلسفى ، وأن لا نتخذ منهج الفلسفة وسيلة لفهم الإسلام وتفسير فلسفته .

كما يجب علينا عدم إخضاع الحقائق الإسلامية ؛ لأحكام الفلاسفة وقضاياها .

أو بعبارة أخرى : عدم وزن القيم الإسلامية : بالموازين الفلسفية . وعدم محاولة التوفيق بين الفلسفة والإسلام فى كل قضاياها ، وفى كل موضع . لأن الأولى : ليست بمنزلة الثانية ؛ حتى نكلف أنفسنا بتأويل الآيات أكثر مما تطيق : للتوفيق بينهما .

وأخيراً يجب إظهار فلسفة الإسلام بكامل شخصيتها ؛ مع الإحاطة بكل جوانبها ؛ بعيداً عن خاطها بالفلسفات الأخرى ؛ أيا كان نوعها .

لأن الفلسفة : ليست كلها حق فى ذاتها ، ولا فى كل مبادئها ، وإيس الفلاسفة بمعصومين .

فى حين أن الإسلام بخلاف ذلك : فإنه كله حق ؛ لأنه موحى من عند الله . وهذه الحقيقة يجب أن نتنبه إليها دائماً .

اختلاف طبيعة الدين وطبيعة الفلسفة

لقد عرضنا فيما سبق كيف أدى اختلاط الفلسفة بالدين : إلى تشويه روح الدين كما بينا أن محاولة التوفيق بين الدين والفلسفة محاولة خاطئة تؤدي إلى أضرار بالغة الخطورة في النهاية ذلك أن طبيعة الدين تختلف عن طبيعة الفلسفة من جهتين مهمتين .

الأولى : أن الدين أساسه الوحي ، بينما نجد أن أساس الفلسفة هو الآراء والأفكار أو العقل النسبي ، والوحي والعقل النسبي (العقل البشرى ، عقل محمد وعلى وأبو بكر) قد يتفقان وقد لا يتفقان قد يتعارضان وقد لا يتعارضان فإن عقل الإنسان قد يستطيع إدراك معقولية جميع جوانب الإسلام ومبادئه وقد لا يدرك . وعلى هذا الأساس فعند ما نحاول التوفيق لا بد من إرجاع أحد الطرفين للآخر فمن هنا يجب أن نعتبر أحد الطرفين معياراً ، فإذا جعلنا الدين معياراً فعنى ذلك أننا أخضعنا الفلسفة للدين ومعنى ذلك أيضاً أننا جعلنا الفلسفة ديناً وإذا جعلنا الفلسفة معياراً فعنى ذلك أننا أخضعنا الدين للفلسفة أى أننا جعلنا الدين فلسفة .

وإذا جعلنا الطرفين معاً معيارين متقابلين فعنى ذلك أننا رفعنا مستوى العقل إلى مستوى الوحي وهذا لا يجوز لأن مستوى الوحي فوق مستوى العقل البشرى .

الثانية :

أن الدين لا يقبل التطور من حيث المبادئ العامة فلا نستطيع أن نضيف إليه عقيدة جديدة أو نظرية جديدة ولا نستطيع أن نحذف منه شيئاً وإلا يخرج الدين عن طبيعته الأصلية بمرور الزمان .

أما الفلسفة بخلافه لأن مجالها واسع ويمكن أن يتطور ويمكن أن نضيف

إليها النظريات الجديدة كما وقع بالفعل في مختلف الفلسفات وكذلك يمكن أن نخذف منها شيئاً .

فإذا نحن وفقنا بين الدين وفلسفة عصر معين فإننا لا بد من أن نغير مفهوم الدين في كل عصر وفقاً لتطور الفكر الفلسفي . وبذلك نكون قد جعلنا الدين تابعاً ذنباً للفلسفة .

بقي شيء آخر هام لا بد من إيضاحه وهو أن هذه الفلسفة الإسلامية المتداولة الآن إذا كانت ليست فلسفة إسلامية حقاً وإذا كانت لا تعبر عن الفلسفة الإسلامية فما هي الفلسفة الإسلامية ؟

وكيف ندرسها ونستخرجها كاملة إلى حين الوجود ؟

والإجابة عن السؤال الأول نقول إن الفلسفة الإسلامية هي الفكر الإسلامي الذي يعالج به جميع القضايا الفلسفية أو هي الرأي الإسلامي في جميع المجالات الفلسفية التي تشمل كل القضايا الإنسانية التي لا يمكن معالجتها عن طريق العلوم التجريبية أو التي لا تخضع وتدخل في نطاق المعمل العلمي . إذن فهي تشمل دراسة الاخلاق والعقائد والعبادات والسياسة والاقتصاد والدراسات النفسية والروحية والعقلية وهنا قد يقول القائل : إن هذه القضايا قد درسها رجال الإسلام أيضاً من قبلنا !

فالفقهاء درسوا العبادات والاقتصاد والسياسة والمتكلمون درسوا العقائد والصوفية درسوا الاخلاق والفلاسفة المسلمون درسوها من الوجهة الفاسفية .

فإذا يكون موقفنا من هذه الدراسات ومن أين نبدأ وأين ننتهي وكيف يكون منهجنا في هذه الدراسات هذه الأسئلة الثلاثة مجتمعة تحدد جوانب الإجابة عن السؤال الثاني الذي سأناؤه من قبل .

وهو كيف ندرس هذه الفلسفة ونستخرجها إلى حين الوجود كفلسفة متكاملة متناقة تمثل حقاً الفلسفة الإسلامية الحقيقية ؟ إن منهجنا لدراسة الفلسفة من جديد يتلخص في النقاط التالية : —

أولاً : نبدأ من الإسلام ، فنجعل أرضية دراستنا هي الإسلام (النصوص الإسلامية) فكل دارس يأخذ قضية معينة من القضايا السابقة أو جزءاً منها كموضوع الدراسة ويعالجها من وجهة النظر الإسلامية أو من وجهة الفكر الإسلامي . بادئاً من النصوص الإسلامية (القرآن والسنة)

ثانياً : أن نحدد موقفنا من دراسات السابقين باتخاذها وسيلة من وسائل الفهم لنستفيد من مجهود الفهم ولكن لا نأخذ كل دراساتهم مأخذ القبول ولا نتخذها كبداية ولا كنهاية لا نأخذها كبداية تبدأ بها ولا كنهاية تنتهي إليها . وإنما تكون واسطة بين البداية والنهاية .

والخطورة كل الخطورة أن نتخذ هذه الدراسات كبداية ونهاية وإلا نكون قد أدخلنا أنفسنا في متاهات قد لا نستطيع أن نخرج منها أو نكون قد أدخلنا أنفسنا في معمعة من الدراسات ندور فيها كحلقة مفرغة لا ندرى أين طرفاها .

وعلى كل ؛ سواء استطعنا أن نخرج منها أو لم نستطع فإننا بذلك لا نستطيع أن نقدم شيئاً سوى أن نقدم رأياً على رأى أو التوفيق بين الرأيين أو إبطال البعض وإبقاء البعض الآخر .

ولكننا بذلك لا نكون قد خدمنا الفلسفة الإسلامية وإنما نكون قد خدمنا فلسفة هؤلاء الرجال . ونحن لا نريد الآن أن نخدم الرجال وإنما نريد أن نخدم الإسلام ولهذا فلت لا بد أن يكون الإسلام هو البداية وهو النهاية في نفس لوقت .

ثالثاً : أن يكون هدفنا هو معالجة المشاكل الفلسفية المعاصرة المتصلة بحياتنا الراهنة المشاكل الإنسانية الفلسفية التي يعاني منها الناس جميعاً ، نعالج هذه المشاكل من زاوية الفلسفة الإسلامية الصافية لا من زاويتنا ولا من زاوية التيارات الفكرية الفلسفية المعاصرة ولا من زاوية آراء السابقين . وبذلك نستطيع أن نقدم الفلسفة الإسلامية الصافية ونستطيع أن نعالج مشاكلنا عن طريق فلسفتنا الإسلامية وبذلك نجعل الفلسفة الإسلامية تساهم في حل مشكلاتنا خاصة ومشكلات الإنسانية الفلسفية عامة .

الطرق الصوفية

وكانت الطرق الصوفية أيضاً من جملة العوامل التي أدت إلى تشويه المفاهيم الإسلامية ، ويجب أن يعرف أولاً أن هناك فرقاً شاسعاً بين مفهوم التصوف في الإسلام وبين تصوف المتأخرين الذي يتمثل في الطرق الصوفية ، فإن هذه الطرق قد انحرفت عن أصلها الإسلامي ، وإذا أشرنا إلى تاريخها بالإيجاز وبيننا كيف زاد انحرافها كلما قطعت مرحلة من مراحل حياتها ، عند ذلك فسوف يتضح ما قلنا .

وقبل هذا أود أن أبين مصدر كلمة صوفي :

قيل إنها منسوبة إلى صوفة لاسم رجل كان يعبد الله في البيت الحرام ، وقيل إنها منسوبة إلى الصوف لأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يحب لبسه لأنه علامة الخشونة والخضوع ، وقيل إنها منسوبة إلى الصفاء ، وقيل إنها منسوبة إلى سوفيا وهي كلمة يونانية ومعناها حكمة .

غير أن أنسب الأقوال هو أنها منسوبة إلى الصوف وتؤيدها الصيغة الصرفية .

وعلى أي حال فإن التصوف في عهد الرسول كان عماده الزهد والتعبد والخشوع وغايته نيل رضوان الله والخوف من عقابه وعذابه وإن لم يكن هذا الاسم يطلق على من كانت سيرتهم هذه في ذلك العهد ، وإنما كان يسمى من عرف بهذه السيرة بالتقي أو العابد .

ثم تطور هذا المفهوم إلى أن صار هدفه هو التعبّد لله حباً له لارغبة في رضاه ولا طمعاً في ثوابه ولا خوفاً من عقابه .

وفي المرحلة الثانية من تطوره : تدخلت فيه المبادئ الاجنبية دينية كانت أم فلسفية أو ممزوجة بهما جميعاً .

وفي المرحلة الثالثة : حصل تطور مرة ثانية في غايته إذ أنها أصبحت تنحصر في مطالعة الذات الإلهية ومشاهدة الجمال الإلهي الأزلي .

وفي المرحلة الرابعة : وصل إلى قمة الانحراف فاتصل بالنظريات الغربية على الإسلام المتباينة مع مبادئه مثل نظرية الفناء في الله ، ووحدة الوجود والاتحاد أو الحلول وغيرها من المبادئ التي انتقلت إلى العالم الإسلامي من الشرق والغرب لإبان اتصاله بهما .

وفي المرحلة الأخيرة (١) ظهرت هذه النظريات وتلك المبادئ في ثياب التصوف عارية مكشوفة وأصبح التصوف اتجاه طائفة أو جماعة من الناس تؤلف فيه الكتب الممزوجة بالمبادئ الإسلامية والفلسفية والديانات الأخرى معاً .

ومن ثم بدأ يختلف المتصوفون فيما بينهم ، ويذهبون مذاهب شتى وطرائق قديداً حتى أصبحت هناك عشرات الأنواع من الطريقة الواحدة لها طريقة معينة في التسميع والتهليل مع تزوير المزامير وضرب الدف وكل واحدة تدعى لنفسها أنها على حق والأخرى على باطل ، كما يدعى بعضهم بأنه يتصل بالمغيبات ويظهر الخوارق للعادة وأنه يشفي المريض بنفخة في وجهه أو لمسه بيده ويقولون بعض الكلمات يظهرون بها أنفسهم أنهم أولياء مثل قولهم مافي الجبة لإلا الله أو أنا الحق وغيرها من الكلمات التي ما كان الرسول يقولها ولا صحابته الكرام من بعده مع علو منزلتهم وسمو مكانتهم عند الله .

وقد لا يرضى عن هذه العبارات أتباعهم لأنهم يحاولون دائماً الدفاع عما صدر منهم من كلمات لا يرضى عنه الإسلام غير أن ما نعلمه من صورة الولاية وسيلة

(١) إن تحديد فترات هذا التطور تاريخياً غير ممكن مع ذلك فإن بعضهم حدده على وجه التقريب — المرحلة الثانية كانت حوالى القرن الثاني والثالثة حوالى القرنى الثالث والرابع .

لكسب المعاش وأثر هذه الكلمات في إظهار أنفسهم بمظهر الولاية في نفوس الناس .
هذه الأمور وغيرها تدفعنا إلى عدم الثقة بهم ، حقاً نحن لا نتكر وجود
الصالحين منهم ، ولكنني عند ما أتكلم إنما أتكلم عن الظاهرة بوجه عام .

ومن مظاهر هذه الطرق الصوفية أنها تدعو إلى ترك الدنيا والعمل من أجلها
وعدم الاعتناء بشئون الحياة أو بعبارة أوضح أنها تدعو إلى الكسل والشعوذة ،
والدعة والتكاسل والاهتمام بالروح ومطالبها وحدها . وهذا الاتجاه أقرب إلى
اتجاه المسيحية منه إلى الإسلام ، ذلك أن المسيحية تتجه دائماً إلى الاعتناء بالروح
أما الإسلام فإنه كما يعنى بشئون الروح يعتنى بمثلها بأمور الدنيا ، وقد بينا ذلك
في الفصل الأول بالتفصيل .

أضف إلى هذا أن تعدد هذه الطرق تشجع أعداء الإسلام على تشويبه
بالوسائل المختلفة حيناً بفتح طريقة ظاهرها إسلامي وباطنها حرب عليه وعلى مبادئه
وحيناً آخر بالهجوم عليه بأنه دين تأخر وخرافة .

حتى أن كثيراً من المسلمين الذين يجهلون حقيقة الإسلام أساءوا الظن بالإسلام
لأنهم حين رأوا هذه المظاهر الشعوذية من أهل الطرق ظنوا أن ذلك انعكاس
لروح الإسلام ، وأن الإسلام يأمر بذلك ويدعو إليه .

بقي أن نبين بعد هذا أن هذه الطرق بدعة مخالفة لسنة العبادة التي أكملها
الإسلام شكلاً وموضوعاً ، فإن أي تغيير فيها بالزيادة أو النقص يعتبر بدعة ،
وإذا أوردنا تعريف البدعة لدى العلماء فسوف نجد أنه منطبق عليها .

فقد عرفها بعض العلماء بأنها طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشريعة
يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية أو يقصد بالسلوك عليها المبالغة
في التعبد لله .

وعرفها الآخرون بأنها كل ما وجد وحدث بعد الرسول .

وإن كنت أرجح تعريف الأول لسبب آخر أذكره بعد قليل فإن كلا
التعريفين على أية حال ينطويان عليه ، وقد يستدل هؤلاء بصحة هذه الطرق

بدعوى أنها من البدعة الحسنة وقد قال الرسول — صلى الله عليه وسلم — « من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها ، وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً (١) » ،

ولكن ليس معنى هذا الحديث أنه يدعو إلى الاختراع في الدين فإن جانب العبادة والتمسك بالعتيقة لا تقبلان الاختراع بأي حال من الأحوال ، بدليل أن الرسول أنكر على الجماعة الذين عزم بعضهم بأنه يصوم الدهر والآخر أنه يقيم الليل كله والثالث أنه لا يذبح النساء أبداً ، وما ذلك إلا لأنهم تجاوزوا حدود العبادة وزادوا عليها ، وكذلك منع الله الزيادة على العبادة المقررة (٢) فقال تعالى : « قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا (٣) عن سواء السبيل (٤) » ، والغلو هو الزيادة والتشدد في أمر الدين .

وأما مجال الحديث « من سن سنة حسنة . . . الخ » في جانب التشريع وأمور الدنيا بدليل أن الرسول أباح أعمال العقل في هذا الميدان فهو حين أرسل معاذ ابن جبل أباح له لإعمال عقله فيما لا نص فيه من كتاب أو سنة .

يدل على هذا أيضاً أقواله في تأبير النخل وحفر الخنادق واختيار أحسن موقع في حرب بدر مثل هذه الأمور من السنة الحسنة ومنها أيضاً اختراع عمر الديوان واختراع الصحابة تدوين الأحاديث .

وعلى هذا فإن معنى السنة الحسنة هو الإرشاد والهداية وبيان طريق الخير للناس في شئون الدنيا . والبدعة السيئة اختراع طرق للشر والفساد .

(١) فتح الباري الجزء ١٦ صفحة ٦٥ مطبعة مصطفى البابي الحلبي .

(٢) ولا تعتبر النوافل من العبادة الزائدة لأنها مشروعة بالأحاديث صورة ومضموناً .

(٣) والخطاب هنا وإن كان لاهل الكتاب إلا أن الغلو طالما لا يجوز في دين الله لا يجوز أيضاً في الإسلام . (٤) سورة المائدة : ٧٧

هذا وقد جاء الخطأ حيناً من الخلط بين البدعة الحقيقية والبدعة الإضافية فالبدعة الحقيقية ما خالف الدين شكلاً وموضوعاً .

والبدعة الإضافية ما خالف الدين شكلاً لا موضوعاً .

وقد غاب على كثير من الناس هذه الحقيقة فظنوا أن البدعة الإضافية مشروعة لها سند من الدين لوجود أصل لها ثابت في الدين من حيث الموضوع فليس فيها تغيير إلا من حيث الشكل ، فمثلاً نجد أن أصل الصلاة على النبي ثابت بالنص ولكن تركيبها مع الأذان غير ثابتة فهذا التركيب بدعة إضافية لأنه ثابت موضوعاً لاشكلاً .

ومثال آخر وهو أنه إذا كان التسبيح ثابتاً بالنص فليس لأحد أن يزيد في عدد ركعات الصلاة المفروضة بدعوى أنه بذلك يكثر التسبيح وذكر الله .

روى أن ابن عباس — رضى الله عنه — أنه مر يوماً بمسجد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فرأى حلقات من الناس وفي أيديهم حصى فيقول أحدهم كبروا مائة فيكبرون مائة ويقول هللوها مائة فيهللون مائة ويقول سبحوا مائة فيسبحون مائة فقال « ما تصنعون » فقالوا « حصى نعد به التكبير والتهليل والتسبيح » فقال « وحي أمة محمد . . ما أسرع هلكتكم . . أو تفتحو باب ضلالة » فقالوا « ما أردنا إلا الخير » فقال « كم من مرید للخير لم يصبه » وقال أيضاً « اتبعوا ، ولا تبتدعوا فقد كفيتم »

فهذا دليل على أنه لا يجوز الابتكار في شؤون العبادة وكان ابن عباس قال ذلك استناداً إلى قول الرسول — صلى الله عليه وسلم — « ومن عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » .

هذا شأن العبادات لا اجتهاد فيها ولا استنباط لأن الله أكملها وحددها شكلاً وموضوعاً على الهيئة التي أراد بها عبادته فلا يحق لنا أن نتدخل فيها بتغيير شيء من ذلك كما أو كيفاً .

ثم أن العبادة لا تتأثر بتطور الزمان والمكان ، بخلاف ذلك جانب التنظيم

والتشريع من الإسلام ، فإن الإسلام أكمل هذا الجانب من حيث وضع الأسس العامة والنظريات الرئيسية ، أما تحديده من حيث جميع الجزئيات والشكليات فذلك متروك للناس في كثير من الأحوال ينظمون حياتهم بتنظيمات وشكليات تخضع لهذه الأسس العامة لأن هذا الجانب تتأثر بتطور الزمان وتطور حياة الناس فلا بد أن تكون فيها شيء من المرونة ، ولا يضل الناس مهما تغيرت الحياة وتطورت ماداموا سائرين على هدى هذه الأسس لأنها طريق واضح أمام المسلمين لكل زمان ومكان .

وسوف أتناول هذه النقطة بشيء من التفصيل في موضعها المناسب في الفصل الآتي إن شاء الله .

بعد هذا بقي أن نحدد موقفنا من هذا العامل .

موقفنا من هذه الطرق :

ثبت في هذا البحث مدى خروج الطرق الصوفية عن المنهج الإسلامي سواء كان من حيث اتجاهها العام في الحياة أو من حيث مزج مفاهيمها بالمبادئ الفلسفية والديانات الأخرى ، أو من حيث إن مراسمها المختلفة التي اخترعوها للتعبد بدعة خارجة عن حدود التعبد في الإسلام .

وإذا كان الأمر كذلك فعلينا إذن أن نحاربها ونلغيها ونعلن براءة الإسلام منها وأنها تشوه المفاهيم الإسلامية في الخارج والداخل ، ثم نشرح هذه الحقائق في جميع الشعوب الإسلامية بكل الوسائل التي يمكن اتخاذها .

يقول بعضهم أن علينا إصلاحها فإن الأخطاء تصلح بالتوجيه والإصلاح لا بالإلغاء والإعدام .

حقاً هذا الاعتراض له وجهة لو كنا بحاجة إليها ولا يمكن لنا الاستغناء عنها لكننا لسنا بحاجة إليها لأن الإسلام منهاج واحد ، وطريقة واحدة فإن

التمسك به من جميع جوانبه والسير على طريقته ومنهاجه هو تطبيق الإسلام على الوجه الصحيح وهو الذى يجمعنا جميعاً فى صف واحد ويوجهنا إلى جهة واحدة أما لإنشاء الطرق المختلفة باتجاهات ومراسيم متنوعة فما هى إلا تفريق الأمة وإفشاء الخلاف بين علمائها وانحلال قوى الوحدة فى نفوسها وفتح الثغرات لدخول النفوذ الأجنبي وظهور الآراء المنحرفة فى صفوف المسلمين .

وأخيراً ينبغى أن يلاحظ هنا أن تقدى للطرق الصوفية لا للتصوف أو الحياة الروحية فى نطاق الإسلام ، قد يساء فى الظن أنى بهذا الموقف من الطرق قد ظلمتها غير أننى لو ذكرت لكم رأى الإمام القشيري فيها - وهو من أعلام التصوف - فى تصوف هؤلاء لظهر أن حكمى عليهم أخف من حكمه . يقول و حصلت فترة فى هذه الطريقة ، لا بل اندرست الطريقة بالحقيقة مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء ، وقل الشباب الذين كان لهم بسوفهم وسنتهم اقتداء و زال الورع وطوى بساطه واشتد الطمع وقوى رباطه وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة ، فغدوا قلة المبالاة بالدين أو ثنى ذريعة ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام بالصوم والصلاة وركضوا فى ميدان الفضلات وركنوا إلى اتباع الشهوات وقلة المبالاة بتعاطى المحظورات والارتفاع بما يأخذونه من السوق والنسوان وأصحاب السلطان ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق ، والأحوال ، وادعوا أنهم تحرروا عن رِق الأغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال وأنهم قائمون بالحق تجرى عليهم أحكام وهو محو وليس لله عليهم فيما يؤثرونه عتب ولا لوم وأنهم كوشفوا بأسرار الأحادية واختطفوا عنهم بالكلية وزالت عنهم أحكام البشرية وبقوا بعد فنائهم عنهم بأنوار الصمدية والقائل عنهم غيرهم إذا أنطقوا والنائب عنهم سواهم فيما تصرفوا بل صرفوا (١) ،

وإذا كان الإمام القشيري يهاجمهم بمسأله عليه فى النصف الأول من القرن

(١) أنظر كتاب الرسالة القشيرية ج ١ ص ٤ للإمام القشيري طبعة مكتبة

محمد على صبيح وأولاده بمصر (الطبعة الأولى) .

الخامس الهجرى فما بالك بما آلت إليه أحوالهم بعده حتى يومنا هذا .

وليس ما قلته هنا مجرد ملاحظات لبعض الطرق بل هو عن دراسة واعية وملاحظات مباشرة للطرق في مختلف البلاد .

وليس ما قلته هنا أيضاً هو كل نتيجة دراستى وملاحظاتى بل كل ذلك سيأتى موضعاً ومفصلاً فى رسالة خاصة أعدها بعنوان « نشأة الطرق الصوفية ، وعلاقتها بالإسلام » ، وما ههنا إلا مجرد لمحات وإشارات مناسبة لحجم الكتاب ذكرتها كعامل مشوه لروح الإسلام ، وشعارى الأخير هنا هو أن الإسلام طريق واحد لا يحتاج إلى الطرق .

فوضى التّأويل

أشرت فى بعض المناسبات فيما سبق — إلى دور فوضى التّأويل فى تشويه روح الإسلام ولكن هذه الإشارات لما كانت غير كافية للإحاطة بدورها فى هذا الميدان ، احتجت إلى أن أخصه بعنوان ليكون دورها واضحاً كل الوضوح فى نظر القراء .

وقبل توضيح ذلك أريد بيان الحقيقتين الآتيتين لأنهما بمنزلة ميزان نزن به مدى خطر هذا العامل فى هذا المجال .

أما الحقيقة الأولى : فهى أن الإسلام منهاج جاء ليتبعه الناس ويسيروا عليه بدلا من أن يسير وفقاً لهوى الناس ويسير تبعاً لآرائهم المختلفة ، بل هو ميزان لجميع القيم ، جاء لتوازن به الحقائق والقيم لا ليوازن هو بما يضعه الناس من القيم والمناهج .

وأما الحقيقة الثانية: فهي أن الإسلام يهدف دائماً إلى تحقيق المطالب الأساسية للفرد في حدود القيم والمبادئ التي جاء بها دون إضرار بمصلحة الغير فلا يسمح للفرد بتحقيق مطالبه بأية طريقة كانت ولو على حساب الآخرين .

غير أن التأويل حين أصبح فوضى ، بدون قيد ولا شرط ، وحين أصبح وسيلة لتبرير الاتجاهات الشخصية بإيجاد سند لها من الدين بأية طريقة كانت ، حين غير المؤلفون المنحرفون الحقيقتين السابقتين .

فكسوا القضية الأولى بقصد أو بغير قصد بجعل آرائهم ميزاناً وأهوائهم ، واتجاهاتهم منهاجاً ، ثم حاولوا إخضاع الآراء الإسلامية لآرائهم ، ومنهاجهم لمنهجهم .

وبذلك جعلوا الإسلام عرضة لأهوائهم وأستاراً يخفون وراءها سوء نياتهم . وقد حذرنا الله من اتباع هؤلاء لسوء مصيرهم في النهاية فقال تعالى : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً (١) » ، « رأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً (٢) » ، « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين (٣) » . « بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم ، فن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين (٤) » ، وغير ذلك من الآيات يتدد هذا الاتجاه .

إن الفكرة يجب أن تنبع من قلب الإسلام لا أن تعنتق من الخارج أو من هوى الناس ثم تفرض على الإسلام فرضاً .

وكانت النتيجة الحتمية لهذا الاتجاه الخاطيء أن أصبحت هناك مناهج مختلفة واتجاهات متعددة بين صفوف الأمة الإسلامية ، ومن ثم تعددت الآراء ، وتشلت الأمة وأصبح الإسلام عرضة لآراء وأفكار متناقضة ونظريات متهافة .

(٢) سورة الفرقان : ٤٣

(١) سورة الكهف : ٢٨

(٤) سورة الروم : ٢٩

(٣) سورة القصص : ٥٠

وفي ذلك تشويه وتشويش : تشويه لروح الإسلام من جهة ، وتشويش على فكر الامة من جهة أخرى .

وكذلك تغافلوا عن الحقيقة الثانية كما فعله البعض أو جهلوا كما فعله البعض الآخر .

إن الإسلام لا يتعارض أبداً مع مصلحة الناس كأفراد وجماعات ، ولا يقف أمام مطالبهم ما داموا يطلبونها في حدود القيم الأخلاقية والدينية وما داموا يطلبونها بطريقة لا تضر الآخرين إن عاجلاً أو آجلاً .

غير أن بعض الناس يرسم لنفسه طريقاً للوصول إلى هدفه فلا يستشير الإسلام قبل رسم طريقه : أهو موافق للبادئ الإسلامية أم مخالف لها ؟ ثم يجد الإسلام يعرضه في هذه الحالة ، إما أن يحاول التوفيق ولو بطريقة تعسفية ، فيحمل الآيات ما لا تطيق ، وبذلك ينفذ طريقته غير الشرعية باسم الشريعة ولو أضرت بمصلحة الأفراد والجماعات .

ولما أن يقول إن الإسلام يعارض مصلحة الناس ، وفي كلتا الحالتين يصبح الإسلام مظنة سوء ، حقاً إن الإسلام يقف أحياناً في طريق الناس ويعارض بعض الوسائل التي يتخذونها لقضاء مآربهم ، لأن ما فيها من الأضرار أكثر مما فيها من المصلحة التي يلاحظونها ، أو لأن ما يترتب عليها من الأضرار سوف يحدث في المستقبل وهم لا يدركونها ، لأنهم لا ينظرون إلا إلى القريب العاجل .

وأحياناً يقف الإسلام سداً أمام مصلحة الفرد من أجل مصلحة المجتمع إذا أراد تحقيق مصلحة على حساب الناس أو بطريقة غير أخلاقية ، فعدم ملاحظة هذه الأمور عمداً أو بغير عمد من الأسباب الرئيسية في فوضى التأويل ، التي رأينا بعض صور منه لدى إخوان الصفا وبعض الفلاسفة المسلمين أمثال الفارابي وابن سينا .

ويطول بنا المقام لو ذكرنا أمثلة لمثل هذا التأويل عند مختلف الأحزاب السياسية والطوائف وأهل الطرق الصوفية . ولهذا أكتفي بما سبق .

غير أنني أحاول هنا تلخيص دوافع هذا التأويل التعسفي حتى لا تقع فيما وقعوا فيه ، فأهم هذه الدوافع أو الأسباب هي ما يلي : —

أولاً : محاولة التوفيق بين الإسلام والفلسفة كما رأينا لدى السابقين أو بين الإسلام والمذاهب السياسية أو الاقتصادية كما نراه لدى المحدثين . وقد بينا خطأ هذا الاتجاه بوجه عام .

ثانياً : محاولة إيجاد سند أو دليل من الإسلام للأراء الشخصية أو اتجاهاتها حتى تجد قبولاً لدى الجمهور .

ثالثاً : تبرير الاتجاهات المنحرفة ، وقد قال تعالى في حقهم « فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله (١) » ،

وعلى كل حال فإنها جميعاً قد أدت إلى نتائج سيئة إذ أنها شوهدت روح الإسلام في نفوس المسلمين وغير المسلمين على السواء ، إذ أن المبادئ الإسلامية أصبحت بذلك متناقضة متضاربة ، وصدق رسول الله حين بينا لنا أن مثل هذه التأويلات تؤدي إلى مثل هذه النتيجة فقال : « إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً فما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه منه فأمنوا به » قال ذلك بعد أن نزل قوله تعالى « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا (١) » ،

من أجل هذا كله يجب أن نحدد موقفنا من هذا التأويل . وذلك :

أولاً : بإعلان حرب شعواء على فوضى التأويل .

ثانياً : إعادة النظر إلى النصوص ودراستها بعيداً عن الخلافات المذهبية والحزبية متخذين الهدف الأساسي للوصول إلى الفهم الصحيح .

ثالثاً : وضع قانون للتأويل وحدود لسير داخل قيوده .

(١) سورة آل عمران : ٧ .

...
 ...
 ...

...
 ...
 ...

...
 ...
 ...

...
 ...
 ...

...
 ...
 ...

...
 ...
 ...

...
 ...
 ...

...
 ...
 ...

...
 ...
 ...

...
 ...
 ...

...
 ...
 ...

...
 ...
 ...

...
 ...
 ...

...
 ...
 ...

...
 ...
 ...

...
 ...
 ...

...
 ...
 ...

...
 ...
 ...

...
 ...
 ...

...
 ...
 ...

...
 ...
 ...

...
 ...
 ...

...
 ...
 ...

...
 ...
 ...

الفصل الثالث
منهاج إظهار جواهر الأسماء
وعرضه في أطوار جديد

قمت في الفصل الأول من هذا البحث بمحاولة للإشارة إلى جوهر الإسلام في بعض نواحيه وقيمه الفلسفية والمنهجية التي لا نستغنى عنها في أي طور من أطوار حياتنا .

وفي الفصل الذي يليه حاولت بيان كيف شوّه جوهر الإسلام بدخول المبادئ ، والمفاهيم التي ليست من الإسلام في شئ ، ثم بينت أهم العوامل الرئيسية التي أدت إلى هذا التشويه الذي حجب عن أعين الناس حقيقة الإسلام وجوهره .
وأخيراً أوضحت كيف نستطيع إزالة هذه الرواسب ونتخلص من هذه العوامل وأسبابها السيئة .

غير أن مجرد إزالة الرواسب والعوامل التي أدت إليه لا تكفي أبداً ، إذ لا بد أن نضع المنهاج الذي نتبعه لعرض جوهر هذا الدين عرضاً جديداً ونحدد في هذا المنهاج الأساليب التي يجب اتخاذها لعرضه في ثوب جديد ، ونرسم فيه طريقة لبيان حكم الإسلام على القضايا الراهنة ، والاحداث الواقعة .

ثم نوضح كيف تُظهرُ فلسفة الإسلام في الوجود ومكانتها بين الفلسفات .

وهذا العمل ضرورة لا يمكن الاستغناء عنه بأي حال من الأحوال ، إذا أردنا أن نعيد مكانة الإسلام إلى قلوب المسلمين ، وأن نرفع منزلته لدى غير المسلمين .

لأننا بذلك نستطيع بيان مدى سمو المبادئ الإسلامية ، على المبادئ الأخرى السائدة في العالم في العصر الحديث .

فن أجل كل هذا عقدت هذا الفصل وفيما يلي بيان الخطوط العريضة لهذا المنهاج .

بيان طريقة الإسلام في إحياء الإيمان وعاطفته

إن ضعف العقيدة الإسلامية ظاهرة عامة في جميع الشعوب الإسلامية وإن تفاوت فيما بينها قلة أو كثرة ، فإنها على أية حال مشكلة واضحة عامة لاشك فيها ، وكانت هذه من الأسباب الرئيسية التي أدت إلى ابتعاد المسلمين عن تطبيق الإسلام في كافة المجالات .

وإذا كان كذلك فلا بد من معالجة هذه المشكلة وحلها ، ولمعالجة مشكلة ما لا بد أن نتعرف قبل كل شيء أسبابها ، فما سبب ضعف الإيمان ، وربما إذا عرفنا سبب قوة إيمان الصحابة عرفنا سبب ضعف إيمان هذه الشعوب ، إن الصحابة أو تلك المسلمون الأوائل كانوا في ذلك الوقت يجمعون بين أمرين ، بين عبادة الله مع الإيمان المطلق الكامل قد توفرت فيه مقوماته وعناصره كلها ، وبين التفكير في الدلائل الكونية التي تدل على وجود الله مثل انتظام الليل والنهار وحركة الشمس والقمر وغير ذلك من الآيات الكثيرة المتعددة التي لا تحصى ولا تعد والتي يعجز بها الكون كله ، الدلائل الحية التي تحرك وجدان الإنسان فكلما يعيد الإنسان النظر إليها في ساعات تاركاً فيها مشاغل الدنيا جانباً — ازداد إيماناً بالله وخوفاً منه .

هكذا كانوا يتفكرون في تلك الآيات أثناء الليل ويعملون من أجل المجتمع والدين أطراف النهار ، يتفكرون في تلك العجائب البديعة التي إن دلت على شيء فإنما تدل على خالقها وصانعها وهذا هو منهاج الإسلام لتثبيت العقيدة وتقويتها وذلك مرسوم في قوله تعالى : « الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم

ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقنا
عذاب النار (١) .

ولكن المسلمين بعد ذلك بدأوا يقتصرون على الإيمان التقليدي ، الإيمان
الصوري الجامد البليد الرتيب الذي لا يخلق في الإنسان حركة ولا تفاعلاً ولا
طاقات كان الأوائل مزودين بها ، وكذلك العبادة التي أصبحت في نظر أكثر
المسلمين اليوم عبارة عن صورة وهيكل أكثر من أن تكون روحاً وإشراقاً .

وهكذا أخذت تنتقل صورة الإيمان وصورة العبادة من جيل إلى جيل فالآباء
يلقنون أبناءهم بكلمة الشهادة ويلقنونهم إلى جانب ذلك صورة بعض المبادئ
أو قوالها دون بيان ما فيها من روح وفلسفة ، فبهذا الإيمان التقليدي والعبادة
الصورية يعيش المسلمون اليوم ليس فيهم روح الإسلام ، فتظهر في سلوكهم ،
ولا عاطفته فتدفعهم إلى العمل بها والدفاع عنه في شئون حياتهم المختلفة .

إذن لكي نقضى على هذه المشكلة لا بد أن ندعو إلى التفكير في آيات الله
الكونية والدلائل العقلية وأن نظهر دلالة تلك المكتشفات العلمية الحديثة على
وجود الله فلا شك أن إنسان هذا العصر أقرب إلى الوصول إلى الله من إنسان
العصور السابقة ؛ إذ ظهرت هناك أدلة قطعية الدلالة على وجوده تعالى كان
السابقون غافلين عنها ، مثل وقوف الأرض بهذه العظمة على الهواء ودورانها
فيه بانتظام من الذي يمسكها ويدبرها على هذا النحو ، قال الله تعالى : « إن الله
يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده (٢) » ،
وغير ذلك من الآيات التي كشف عنها العلم الحديث فلا يجد الإنسان الباحث
الحق أمامها إلا الاعتراف بوجوده والإيمان به إلى جانب ذلك يجب علينا أن
نقدم للجمهور فلسفة العبادة وروحها التي طوّلنا بأدائها .

كما لا بد من محاولة لإزالة الشكوك التي يشيرها المتشككون حول العقيدة

(٢) سورة فاطر : ٤١

(١) سورة آل عمران : ١٩١

والعبادة على حد سواء ، نوضح كل ذلك بالتفصيل وبالأساليب المؤثرة عاطفياً تارة وعقلياً تارة أخرى سواء كان في مجال الوعظ والإرشاد أو في مجال التأليف والتعليم . ثم بعد ذلك لا بد من التحرر من الجدال ولا بد من العمل الإيجابي الخلاق وتنظيم حياتنا على الأسس الدينية والعلمية السليمة .

وذلك خير وسيلة لتثبيت العقيدة وتقوية العاطفة الإسلامية وتقديم حياتنا الروحية والاجتماعية معاً .

وضع الإسلام في إطار جديد

إن الإسلام قد أصبح في نظر كثير من الناس شيئاً قديماً أو أسطورة من الأساطير التي تتلى ولا يعمل بها وبذلك أبعدت قوانينه المتعلقة بشئون الحياة ، هذه ظاهرة تكاد تكون عامة في جميع البلاد الإسلامية كما يلمسها كل من يدرس المجتمع الإسلامي من قريب أو بعيد .

ذلك أن الإطار القديم الذي وضعوا فيه الإسلام ، بدأ يسرى فيه البلى في بعض أطرافه ، ويظهر النقص في بعض جوانبه ، وما ذلك إلا لأن الحياة قد تعقدت واتسع نطاقها ؛ لما حدث من الوقائع الكثيرة التي لم تحدث في القرون الماضية فلا يمكن إدخالها في الإطار القديم ووضعها في قوالبه ولفها بنديه وأطرافه ، ولا يعتبر ذلك عيباً في الإسلام أو نقصاً في إدراك علمائه السابقين ، لأن الإسلام روح ، ومعنى توسع دائرتها وفقاً للأحداث لتشملها وكان إطار علماء السابقين وفقاً لأحداث عصرهم ، ولاشك في أن دائرة الأحداث اليوم أكبر وأوسع من دائرة الأحداث السابقة ، ولهذا لا بد من توسيع الإطار الإسلامي ، ولا مانع من ذلك بل هو واجب ، فلنا حق في أن نعمل هذا كما عمل السابقون ، لنا حق في أن نضع إطاراً شاملاً لجميع محتويات عصرنا مقتبساً روحه من روح الإسلام ،

وبذلك نستطيع إظهار مرونة التشريع الإسلامي وحيويته وصلاحيته لكل زمان ومكان ، وإلا فستظل القوانين الإسلامية هكذا بعيدة عن مجال التطبيق ، من هذا يتبين لنا مدى ضرورة وضع الإسلام في إطار جديد لأنه بدا لنا أن كل محاولة لتطبيق الإطار القديم على جميع محتويات هذا العصر سوف تبوء بالفشل ، والوقائع تشهد بذلك .

وإن الذي يحاول مثل هذه المحاولة غافل عن الوقائع والمشكلات قاصر النظر فثله كمثل رجل فصل ثوباً للطفل ويريد أن يلبسه وهو قد أصبح رجلاً ، وأعتقد أنه لا يظن أحد أنني بذلك أدعو إلى تغيير الإسلام إذ لا يقول أحد أن تغيير ثوب الرجل تغيير لجسمه ولست أقصد أيضاً إلغاء الإطار القديم كلية بل أقصد عمل إطار جديد مزيج من القديم والحديث معاً . ويعالج في نفس الوقت جميع أحداث وقضايا عصرنا الحديث من وجهة النظر الإسلامية بأساليب تناسب عقلية هذا العصر (١) .

إبراز النظريات الإسلامية في كافة المجالات

ولو أننا حاولنا الوقوف على مدى فهم المسلمين — بوجه عام — النظريات الإسلامية المتعلقة بجوانب الحياة المختلفة من النظريات الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية أو القضائية — لوجدنا أن أكثرهم مخطئون في فهمها ، من ناحيتين ليست إحداهما أقل خطراً من الأخرى .

(١) ولست أقصد من تغيير الإطار الإسلامي تغيير المبادئ الإسلامية مثل تعدد الزوجات والطلاق وما إلى ذلك وإنما أقصد تغيير الصيغ والأساليب لعرض الإسلام واستنباط قوانين من روح الإسلام تشمل لجميع مقتضيات العصر الحديث وتعالج جميع قضاياها معالجة إسلامية .

الناحية الأولى : أن هذه المبادئ صارمة قاهرة شديدة لارحة فيها ولا سيما ما يتعلق في العقوبات من رجم الزاني وقطع يد السارق زد على هذا أنها تضع الإنسان في قيود وأغلال من شأنها تقلل من نشاطه ، وحيويته .

وأما الناحية الثانية : أنها لا تصلح للتطبيق على الوقائع الحديثة التي ظهرت في العصر الحاضر ، هذا ما يعتقدده كثير منهم ولا سيما أولو الأمر منهم سواء أجهروا به أم أسروا فإنه على أية حال تدور في خلدات أنفسهم .

حقاً قد يكون لهم في ذلك بعض العذر بحكم الظروف والعوامل التي أدت إلى ذلك غير أنه لا عذر لمن يرى الحقائق ثم لا يعلنها ، ويرى أسباب المشاكل ثم لا يحاول القضاء عليها ، من أجل هذا بات من واجبنا الكشف عن هذه الحقائق وإزالة هذه الغشاوة عن أعينهم وهذه الأوهام عن أذهانهم .

وأول خطوة يجب اتخاذها لتحقيق هذه الأمنية ، هو بيان روح النظريات الإسلامية وفلسفتها مع إزالة تلك الرواسب العالقة بها ، مع توضيح أن هناك نظريات يكون شكلها جزءاً منها ، وأخرى لا يكون شكلها جزءاً من مفهومها ولا يلزم رعاية شكلها في كل زمان أو هي بعبارة أخرى نظريات مجردة غير شكلية ، فالمهم فيها روحها وجوهرها لا شكلها وهيكلها ، ومثال الأولى نظرية العبادة ومثال الثانية نظرية الحكم ، فإن العبادة لا تصح إلا إذا روعيت في أدائها قوانينها الشكلية من القيام والقعود والسجود وما شابه ذلك ، أما نظرية الحكم أو السياسة فلا تتقيد بشكل معين من أشكال الحكومات مثل الخلافة أو الجمهورية وإنما المهم روحها وفلسفتها وهي أن يأتي الحاكم برضى الشعب « بالشورى » ويحكم على أساس العدالة والمساواة والحرية ، فإن تكوين الحكومة يجب أن تكون على أساس الشورى ولكن كيفية تحقيق الشورى فهذا متروك للبصحة ، لمصلحة الأمة في كل زمان ومكان ، فسواء انتخبوا الحكومة عن طريق الانتخاب المباشر أو غير المباشر أو بشكل آخر . فالمطلوب هنا تحقيق الشورى لا الوسيلة التي تحقق الشورى ؛ هذه النقطة مهمة قد نتجت عن عدم التفريق بين الأمرين وطبيعة كل منهما — مشاكل ضخمة في طريق تطور الأمة الإسلامية .

تميز السنة التشريعية من السنة غير التشريعية

إن كثيراً من المسلمين ولا سيما غير المتفهمين في الدين لا يميزون بين نوعين من الأحاديث ، بين نوع يحمل طابع الإلزام والتشريع وهذا يشمل الأحاديث التي لها علاقة وثيقة بمعناها العام وبين نوع لا يحمل طابع الإلزام والتشريع وهو يشمل الأحاديث التي تتعلق بجانب حياة الرسول البشرية من كيفية الأكل والشرب واللباس والنوم والمشى وما يحبه من الأطعمة وأقواله في الزراعة والتجارة ووصف الأدوية وكيفية تسدل شعر رأسه ولباسه ، وما أشبه ذلك من الأحاديث التي لا علاقة لها بالشريعة بمعناها العام .

ولقد أقر الرسول نفسه ما نقرره هنا حين قال في مسألة تأبير النخل أنتم أعلم بأمور دنياكم ، وقال أيضاً عند ما سألوه عن اختياره موقع الحرب في بدر: أهدأ منزل أنزلكه الله أم هو حرب ومكيدة ، فقال: بل هو حرب ومكيدة ، وكان يكره أكل بعض الأطعمة مثل أكل الضب . ومع ذلك كان الصحابة يأكلون منها ، وما كان ينكره عليهم ، وغير ذلك من الأحاديث التي تدل على صحة ما نقرره هنا .

وإذا كانت هناك بعض النصوص تدل على عموم تشريعية كل ما صدر من الرسول — صلى الله عليه وسلم — مثل ، وما ينطق عن الهوى : (لأن هو لإلواحي يوحى) (١) ، فإنها مخصصة في رأينا بالأحاديث السابقة وإلا كان هناك تناقض وهذا غير موجود في شريعتنا .

ولست أريد أن أطيل في الشرح والتفصيل لأن المجال ليس مجاله ، وإنما أريد هنا توضيح أهمية التمييز بين النوعين من الأحاديث ، وضرورة ذلك للتخلص من أهم المشاكل التي كان سببها الخلط وعدم التمييز بين نوعيها :

أن تقرير هذا الموضوع له أهمية كبرى قد لا يدركها كثير من دعاة الإسلام ولو أننا قلنا إن من أهم الأسباب التي أدت إلى إساءة الظن بالإسلام وإلى وصف مبادئه بالجود ورجال الدين بالرجعية — هو الخلط بين الأمرين ، ولو قلنا هذا لما ذهبنا بعيداً عن الحقيقة .

ذلك أنه لما تطورت الحياة في جميع جوانبها المتعددة ، وتقدمت العلوم بفروعها المختلفة وأدى ذلك إلى تغيير مظاهر الحياة وأساليبها ، تنكسر المتظاهرون بمظهر علماء الدين ، لهذا كله وقفوا أمام هذا التطور جامدين ، فقالوا إن تغيير شكل اللباس الذي كان يلبسه الرسول — صلى الله عليه وسلم — وتغيير أدوات الأكل الذي كان يأكل بها الرسول — عليه الصلاة والسلام — والأدوية التي كان يصفها ، قالوا كل ذلك مخالف للشريعة لأن الخروج على ما كان عليه الرسول حتى في مثل هذه الأمور الدنيوية مخالف لسنته وشريعته حتى أن بعضهم هاجم دراسة العلوم غير الإسلامية ، ولما كانت غالبية المسلمين لا يعرفون حقيقة الإسلام صدقوهم في أقوالهم واتهامهم كل من ينضم إلى صفوف المتقدمين بالفسق والانحراف وما أشبه ذلك من الأوصاف .

ولما اعتقد الناس أن مثل تلك الأمور جزء من الشريعة والمخالفة فيها مخالفة للشريعة ، رسخ في عقولهم بطريقة شعورية أو غير شعورية أن الإسلام يمنع التقدم ويقف أمام التطور في أي مظهر كان ، ويأمر الناس دائماً بالرجوع إلى الوراء في كل شيء ولهذا قيل إن دعاة الإسلام رجعيون ثم تطور هذا الشعور والاعتقاد حتى أدت إلى كراهية الإسلام ودعائه ولا يزال يعتقد كثير من المسلمين في كثير من الأقطار أنهم وإن أخذوا بأسباب الحضارة فهم في ذلك مخالفون للشريعة لخروجهم على سنة الرسول من هذه الناحية .

فكيف نزيل هذا الشعور ونمحو هذا المفهوم الخاطيء من الإسلام ؟

لا يكون ذلك في رأي إلا بشرح هذا الموضوع شرحاً وافياً وإعلانه في جميع الأقطار الإسلامية .

قد يقول بعض الناس أننا بتقرير هذا الموضوع وإثبات هذا المفهوم قد يفهم من ذلك أننا نريد إزالة بعض ماهو من الشريعة . والحقيقة أننا نريد أن نزيل من الشريعة الإسلامية ما ليس منها .

وهذا الموضوع له أهمية ينبغي ألا نغفل عنها ، ولا ننسى مع هذا خطورته إذا ترك فوضى ، إذ أنه قد يفتح أمام المنحرفين باباً لإلغاء حكم بعض الأحاديث المتعلقة بجانب التشريع بدعوى أنها ليست منها ، لذا ينبغي أن نكون على حذر تام عند التحديد وبيان حدود كل نوع من هذين النوعين .

إظهار فلسفة الإسلام

إن الفلسفة الإسلامية التي نعنيها هنا ليست هي الفلسفة الإسلامية المتعارفة التي كونها بعض فلاسفة المسلمين أمثال الفارابي وابن سينا وابن ملكا وابن رشد ، لأن هذه الفلسفة في رأي ليست فلسفة إسلامية صرفة في الحقيقة ونفس الأمر ، بل هي فلسفة مؤسسة على أساس الفلسفة الأخرى القديمة ، ومندمجة مع مبادئ الأديان الأخرى مضافاً إليها آراء فلاسفة المسلمين الخاصة سواء كانت لها سند من الإسلام أو لم يكن .

وإنما الفلسفة الإسلامية التي أدعو إلى إظهارها هي الفلسفة التي تنبع من نفس الإسلام وروحه — بعيداً كل البعد عن الفلسفات الأخرى وآراء الأشخاص الناتجة عنها — الفلسفة التي تمثل شخصية الإسلام وعظمتها تمثيلاً كاملاً لا تقتصر في جانب معين من جوانبه أو مبادئ معينة مقابلة للمبادئ الفلسفية القديمة

أو الحديثة ، الفلسفة التي تدعو إلى إظهارها هي فلسفة أوسع من المتبادر وأعمق منه .

فهى يجب أن تكون مقابلاً لجميع الفلاسفات الموجودة فى الدنيا من فلسفة الأغريق ، وفلسفة الأديان المختلفة ، وفلسفة النظم المنتشرة السائدة فى العالم ، لأن الإسلام جاء بنظام متكامل لا بدىل له ، فى مجال الاعتقاد وفى مجال التشريع ، وفى مجال السياسة ، وفى مجال الحياة كلها ، جاء ليكون منهاجاً عاماً لحياة الناس ، فلا بد من إظهار فلسفة هذا المنهاج ، فلا بد من إظهار فلسفة الإسلام بهذه الكيفية حتى تظهر شخصية فلسفته بارزة كاملة صافية ، وبذلك يكون الإسلام مقنعاً للشاكين فى صلاحيته ومميزاً على تلك الفلاسفات والمناهج المتبعة فى العالم ، وهكذا يصبح الإسلام طريقاً واضحاً أمام المؤمنين به وغير المؤمنين به على حد سواء .

وضع المبادئ الإسلامية على طريق التفتين

وهذه النقطة لها أهمية خاصة ينبغى ألا يغفل عنها دعاة الإسلام ، ذلك أن ما يعاب على القانون الإسلامى بأنه قانون غير منظم وغير مرتب فيصعب على القاضى الرجوع إليه فى أقرب وقت ، زد على هذا أن كل حكم ، فيه آراء مختلفة ومتناقضة قد يتحير القاضى أو الحاكم فى بعض الظروف فى الاختيار والترجيح وقد أدرك بعض العلماء — بعد أن سمعوا هذا الاعتراض — أثره السيئ فى نفوس بعض المسلمين ، ولهذا حاولوا جادين تنظيم القوانين الإسلامية على غرار القوانين الوضعية .

غير أنه لما كانت هذه المحاولات فردية فلم يتم فيها إلا بعض الجوانب وبقيت جوانب أخرى أكثر وأوسع .

هذا ويجب أن يكون هذا التنظيم متضمناً أحكام جميع الأحداث الجديدة .

وعند تعارض الآراء في حكم من الأحكام يختار الرأي الأصلح لحياة المجتمع ولا مانع بعد ذلك من أن يشار إلى الآراء الأخرى في هامش الكتاب ، لأنه ليس يستبعد أبداً أن يكون رأى منها أصلح في نفس الحكم من الرأى المختار لظروف شاذة تحكمت على وقوع الحادثة .

بعد هذا يجب ألا ننسى شيئاً آخر له أهميته وهو شرح هذه المبادئ المقننة أو المرتبة بالترتيب الذى ذكرناه شرحاً موجزاً يوضح فيه على الأقل : الأساس الذى يعتمد عليه هذا الحكم ثم الغاية التى يهدف إليها ، وذلك فى إطاره الخاص والإطار الإسلامى العام .

ولاشك أننا إذا سرنا على هذا المنهج فى الشرح والترتيب فهو خير من البحث النظرى وتأليف كتب تحلق فى أجواء الخيال وتدور بين مجرد الأخذ والرد أو الهجوم والدفاع .

ولست أحاول بذلك الخط من قيمة البحث النظرى ، أو تقديمه على العمل الواقعى وإنما أرى أنه لا داعى لتكرار الجهود ما دام العمل الذى أشرت إليه يقوم مقام العمليين فى وقت واحد .

الإسلام

يُحَدِّثُ الْوَقَائِعَ وَيَلَيِّقُ حَيَاةَ سَلْبِيَا

وهذه النقطة لا تقل أهميتها أيضاً عن سابقتها ، بل إننا إذا أدركنا مدى أهميتها وجدنا أنها أخطر من غيرها ، ذلك أنها إذا أسىء فهمها أسىء فهم الإسلام وإذا أحسن كان أكبر نصر للإسلام .

إن أى نظام من الأنظمة يقف أمام الوقائع كلها سداً مانعاً فلا بد من أن يكتب له الفشل فى النهاية مهما استمر وقطع من العمر شوطاً بعيداً — ولهذا كان النصر دائماً بجانب النظام الذى يحاول مراعاة الوقائع على أى أساس من الأسس بدون محاربه وعداوته دائماً وأبداً ، وهذا حق نشاهده فى المجالات كلها سواء كان فى مجال التشريع أو فى مجال الفلسفة والعلم ، فبرى أن التشريع الوضعى فى الغرب انتصر على التشريعى البابوى السكندسى والفلسفة المعاصرة انتصرت على الفلسفة المثالية الاغريقية القديمة والمنهج العلمى الواقعى أو التجريبي انتصر على المنهج العلمى النظرى ، وما ذلك إلا لأن الأولى أكثر تفاهها وتجاوباً من الأخرى .

وفى مجال الإسلام كذلك فإن الذين أساءوا فهم الإسلام جعلوه سلبياً تجاه جميع الأحداث والتطورات الطبيعية فى مختلف مجالات الحياة الإنسانية ، حين جعلوا الإسلام سداً أمام الواقع ذلك لأن هذه الوقائع لما تراكت وتضخمت انهار أمامها هؤلاء وأبعد الإسلام عن مجال الحياة ، ومن ثم جلب هذا التصادم من ورائه فسكرة هى أن الإسلام يدعو إلى الجود وأن رجال الدين جامدون .

لذا أصبح من واجبتنا اليوم أن نبين بصراحة ووضوح أن الإسلام لا يقف

دائماً أمام الوقائع والتغيرات والتطورات جامداً وإنما يقف منها موقفه المهذب فيهدبها ويختار العناصر النافعة منها ويحارب الضارة .

هذا وأحب هنا أن أوضح أن هناك بعض الوقائع في حياة المجتمع تبدو لبعض الناس أنها وقائع ضرورية تفرض نفسها على المجتمع فرضاً وهي في نفس الوقت لا يقرها الإسلام فيبدو هنا نوع من التعارض بين الإسلام وبين ما آلت إليه حياة المجتمع .

فهنا يبدأ الصراع بين رجال الدين ذوى البصيرة بالأمور الدينية وبعض الرجال الواقعيين المعاصرين ، فالأولون يقفون ضدها لأن الإسلام يمنعها ولأنها ليست لها ضرورة ويمكن الاستغناء عنها بطريقة أو أخرى ، والآخرون يقولون إنها أصبحت ضرورة لا مفر منها وإنما من عوامل التقدم والتطور في حياة الناس ومن ثم يصفون الأولين بأنهم جامدون .

مثال ذلك الأفلام أو السينما ، فإن الإسلام يعتبر ذلك آلة يمكن استخدامها في الخير كما يمكن استخدامها في الشر فهو يبيح استخدامها في الخير ولا يبيح استخدامها في الشر ، فمثلاً لا يمنع عرض أفلام حروب الأمم وعرض مدن العالم والمجتمعات المختلفة وحياة الناس الخيرين وجهود الأبطال في سبيل الإنسانية وما شابه ذلك ، ويمنع الأفلام التي تشير الغرائز الجنسية وترخص الأعراض وتفسد المجتمع وتسوقه إلى الفساد . فهذا مثال : كيف أن الإسلام يهدب الوقائع .

وقد يمنع الإسلام بعض التغيرات لأنها ضارة على الحياة الإسلامية مثل تبرج النساء لأنه لا يأتي منه أية فائدة إلى المجتمع ، وأما أضراره فكثيرة لا تحصى حتى على الناس السذج فضلاً عن الناس الاجتماعيين الواعين البصرين — لذا فليس من حق أحد أن يصف الذين يحاربون التبرج بأنهم جامدون ، وماذا يؤثر على الحياة لو احتشمت النساء فلا يظهر منهن إلا الوجه والكفين كالرجال وما ضرورتها في الحياة ، أما الذين في قلوبهم زيغ ويحبون أن تشيع الفاحشة بين الذين آمنوا يقولون هذا تقدم وحضارة وأنه أصبح ضرورة .

فهم يريدون أن يتستروا وراء ستار ولكن الستار شفاف تظهر فيه نواياهم المنحرفة .

هذا ويحرم الإسلام أحياناً وضعاً من الأوضاع أو عملاً من الأعمال لأنه لا يتلاءم مع روح منهجه ولكنه يبيح عملاً آخر يحقق نفس الغرض .

إذ ليس من هدف الإسلام تحقيق المنافع المادية الدنيوية للناس فقط بل يمتد هدفه إلى تحقيق ما يعود عليهم بالخير في الآخرة أيضاً ولهذا فإن نظامه يهدف إلى تحقيق الغرضين في آن واحد . فن هنا نرى أنه لا يقاس بالأنظمة الوضعية . وهذه الأمور يجب أن تشمل أمام دعاة الإسلام في كل زمان ومكان .

تحرير المفاهيم الإسلامية من الخرافات والأقاصيص الإسرائيلية

هذه النقطة ذات أهمية أيضاً فإن العلماء السابقين حين وضعوا هذه الترهات والقصص الخرافية (١) في الكتب الإسلامية ولا سيما التفسير ، فإن معاني هذه الآيات والمفاهيم التي ذكروا في شرحها هذه الترهات أصبحت بمرور الزمان تفسيراً ملازماً لمعاني هذه الآيات في أذهان الناس .

(١) مثال هذه القصص الإسرائيلية والخرافات كثيرة منها قصة داود عليه السلام مع إحدى زوجات أصحابه أو أتباعه . ووقوف الأرض على قرن ثور ومن الخرافات أيضاً الأحجية والسحر والشعوذة . . .

تحديد موقفنا من تفسير الآيات الكونية بالنظريات العلمية الحديثة

إن أول واجب علينا أن ندرك أن للإسلام أهدافاً ، جاء لتحقيقها وهذه الأهداف هي بيان طبيعة العقيدة السليمة التي يجب أن يعتنقها كل إنسان ، وبيان علاقة الإنسان بربه ، ثم علاقة الناس بعضهم ببعض ، وأخيراً جاء لوضع القيم الخلقية الثابتة والدستور العام للحياة .

هذه هي أهدافه العامة ، وكل النظريات الإسلامية تدور حول هذه الأهداف الرئيسية .

من هذا يتبين لنا أنه ليس من أهداف الإسلام تعليم الناس العلوم الكونية بجميع فروعها ونظرياتها المختلفة .

لذا نرى أن كل الآيات المتعلقة بمظاهر هذا الكون آيات موجزة غاية الإيجاز ولكن مع هذا الإيجاز قد أعطت حقائق كان الناس يجهلون حتى في العصر الحديث كما لا يزالون يجهلون بعضها اليوم .

وهنا لا بد أن نتساءل هل الحقائق التي كشف عنها العلم الحديث هي نفس الحقائق التي أشار إليها القرآن ؟؟

فهذا السؤال له أهمية ، إذ أن الإجابة عليه هي التي تحدد موقفنا من تفسير الآيات الكونية بالمكتشفات العلمية وهي التي تضع حداً للخلاف الذي يدور بين من يذهبون إلى تفسير الآيات الكونية بالنظريات العلمية وبين من ينعون مثل هذا التفسير .

ومن قبل الإجابة نقرر أن هذه الآيات الكونية جاءت لتدفع الناس إلى التفكير في مخلوقات الله ليزيد بذلك إيمانهم بالله ، لأن التفكير فيها يؤدي حتماً إلى وجود خالقها ، وهى فى نفس الوقت أكبر دليل لدى المؤمن على صحة إيمانه . ونرى أن هذه الآيات أتت فى القرآن فى مجالات التفكير والاستدلال على وجود الله وقدرته وعظمته ، وبعد هذا التنبيه نعود لنجيب على سؤالنا السابق .

والحقيقة أننا لا نستطيع أن نحكم بأن الحقائق التى وصلت إليها العلوم هى نفس الحقائق التى أشارت إليها الآيات الكونية ، وإن ظهر لنا أن أكثرها هى ، ذلك أنه ليس هناك دليل قطعى يحتم علينا أن نجزم بأنها مطابقة تماماً ، ولأن الآيات الكونية بجملة فى موضوعاتها وتفسير المجمال إذا لم يفسره الشارع نفسه فإنه يكون مبنياً على الاجتهاد والمسائل الاجتهادية لا تنفيذ الثبوت والقطع .

هذه من جهة ومن جهة أخرى أن النظريات العلمية الحديثة غير ثابتة أيضاً وذلك لسببين : —

أما من حيث الأساس الذى تعتمد عليه :

فقد اضطرب أساس العلم بعد أن أمار « هيوم » الشك فيه فاختلاف العلماء بعد ذلك فمنهم من قال ، مثل « كانت » لأنه يقوم على أساس مبدأ السببية العام ، ثم أضاف إلى هذا مبدأ الغائية (١) وجاء « ستيوارت مل » فجع أنه أيد « كانت » إلا أنه لم يجد دليلاً قطعياً لصحة هذا المبدأ لأنه — كما قال — ليس مبدأ فطرياً فى النفس يجب التسليم به ، وإذا لاحظنا الآراء المتداولة حول أساس العلم — وجدنا أنها لا تعتمد على أساس منطقي يجعلنا نجزم بصحة رأى منها .

(١) أنظر كتاب المنطق الحديث ومناهج البحث للدكتور محمود قاسم ص ٢٥٧

وأما من حيث شمول النظرية على جميع الجزئيات التي تدخل تحتها :

فقد كانت القوانين الميكانيكية تزعم أنها شاملة بناء على مبدأ الحتمية المطلق على جميع المركبات ولكن تقدم علم الطبيعة أثبت أنها لا تصدق إلا على المركبات الكبيرة ، أما اللامتناهيات في الصغر فلها قوانينها الخاصة بها ، هذا وقد تكون صيغة النظرية ناقصة لأن جزئية من الجزئيات داخلية تحتها لم تتضمنها الصيغة فيكشف عنها العلماء بعد صياغتها ، وفي هذا المجال تحتاج النظرية إلى تغيير صياغتها . كل هذا دفع العلماء إلى أن يقولوا إن النظريات العلمية الحديثة نسبية غير ثابتة وغير مطلقة ولكن ليس معنى هذا أن جميع المكتشفات العلمية غير ثابتة أيضاً إذ أن هناك فرق بين المعنيين .

من أجل هذا كله تقرر أنه لا مانع من تفسير الآيات الكونية بما اكتشفته العلوم الحديثة وقوانينها ولا تمنعه ظنية المطابقة بين المعنيين إذ أن تفسير كثير من الآيات ظنية أيضاً . أما الذين ينعون هذا التفسير بدليل أن هذه النظريات غير ثابتة وقد فسر بها من قبل بعض الآيات ثم تبدلت فأسماء الظن بالإسلام ، حقاً هذا حصل ولكن ينبغي أن نتنبه إلى أن النظريات العلمية السابقة تختلف عن النظريات الحديثة ذلك أن النظريات القديمة كان أكثرها فرضياً لم تثبت صدقها بينما النظريات الحديثة أثبتت صدقها التجربة والملاحظة ، واحتمال تبدل هذه النظريات تبديلاً كلياً بعيد جداً ، أما التغيير الجزئي فهذا من الاحتمالات الممكنة .

وإضافة إلى تبييننا إلى ظنية المطابقة بين الأمرين ننبه قراءنا أيضاً إلى أننا لا نجعل الاكتشافات العلمية مقياساً لمعاني الآيات الكونية ، وإنما نستعين بها للشرح والإيضاح ولإظهار إعجاز القرآن عند رجحان اليقين وبيان قدرة الله في الخلق والإيجاد (١) .

(١) فلا مانع مثلاً من أن أفسر قوله تعالى « إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده » بما اكتشفه العلم من أن الأرض تدور في فضاء وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى صدق هذا الكتاب وعلى وجود صانع قادر حكيم .

كفاية الإسلام للملاحة التطور

إن الإسلام طاقة وحياء يمد الشعوب المؤمنة به بالقوة والحياة ويخرجها من العزلة إلى الانطلاق ومن التأخر إلى التقدم ومن البداوة إلى التحضر ومن الجهل إلى المعرفة .

والدليل على ذلك وجود مئات من الآيات والاحاديث تحث المسلمين على العلم والمعرفة وعلى العمل والجد .

أما إن المسلمين قد تأخروا وتركوا أنفسهم للدعة والكسل والتواكل فذلك تركهم مبادئ دينهم وأحكام كتابهم ، والتاريخ خير دليل واقعي على وجود هذه القوة الحيوية في الإسلام إذ أن الإسلام صنع من الشعوب الميتة الهمجية شعباً واحداً متحضراً متمديناً ذا تراث ثقافي وصاحب قيادة .

ومع ذلك اتهم الإسلام بالرجعية وبأنه سبب لتأخر الشعوب الإسلامية وأنه يخلق في نفوس معتمقيه اليأس والكسل والدعة والتواكل ، ولا شك أن أكثر هذه التهم قد جاءت بسبب الرجعيين الذين يحاولون دائماً تبرير اتجاهاتهم الرجعية وأن يجدوا لها سنداً من الدين ، لأنهم لا يستطيعون دون ذلك أن يجدوا ملاذاً في المجتمع ولا ستاراً يستترون وراءه ، إن اقتران الإسلام بالرجعية والتخلف يكاد يكون منتشرأ في جميع الأقطار الإسلامية ولا سيما في أذهان الطبقة المثقفة .

ولاشك أن جذور هذا الاقتران تعود إلى عصر النهضة وما بعده حين بدأت العلوم التجريبية تتقدم بخطوات واسعة ، وحين بدأت عملة الصناعة تدور بسرعة فائقة منقطعة النظير في التاريخ ، وحين بدأت أنظمة المجتمعات تتسع وتفرع بحكم تعقد الأمور المدنية والحضارية .

ففي هذه الحال بدأ الرجعيون يقفون أمام هذا التقدم الهائل وقوفاً جامداً بدعوى أن ذلك يتعارض مع الإسلام ومرجع دعواهم هذا يعود حيناً إلى جهل بعضهم بمبادئ الإسلام السامية وأهدافها البعيدة ، وإلى مطامع بعضهم الآخر ومصالحهم الشخصية التي تنسبر وراء الإسلام، فهؤلاء الآخرون يتخذون الإسلام ستاراً يحمون به أنفسهم ومطامعهم .

وعلى أى حال فالجميع مشترك في هذه المسؤولية ، مسئولية إلباس الإسلام ثوب الرجعية وإن اختلف بعضهم عن البعض من حيث القصد والهدف .

إن الإسلام لا يقف أمام التقدم العلمي لأن العلم خير وسيلة للبرهنة على وجود الله ولهذا قال تعالى : ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين (١) ، ولهذا نجد الإسلام دائماً يحث على استعمال العلم والفن في سبيل الخير والمصلحة ، أما إذا استعمل العلم والفن في الشر فهنا نجد الإسلام يقف ضده ولكنه إذا وقف ضد هذا الاستعمال السيء والتصرف القبيح فليس معنى ذلك أنه وقف ضد العلم فهناك فرق كبير بين هذا وذاك .

ولكن الذين يجهلون فلسفة الإسلام ونظراته البعيدة هم الذين يسندون إلى الإسلام من حيث لا يشعرون ويظنون أنهم يحسنون صنعاً .

من هذا كله نرى أن الإسلام لاعلاقة له بالرجعية ، وإنما الرجعيون هم الذين يجعلون الإسلام رجعياً .

ومن أجل هذا يجب أن نزيل عن الإسلام مفاهيم الرجعية ، وإلا فإن الإسلام لن يتخذ في العصر الحديث مكانته اللائقة في قلوب الناس — عامة والمسلمين خاصة — ما دامت هذه المفاهيم السيئة عالقة به ، لازمة له في أذهان الناس .

الفصل الرابع
وسائل تنفيذ هذا المنهج الحديث

لا يمكن أبداً أن نضع منهاجاً ما ، دون أن نبين كيفية تحقيقه ووسائل تنفيذه ، لأن المنهج الذي لا يمكن تطبيقه ينبغي ألا يوضع ، إن عقولنا يجب أن تتفكر دائماً وأبداً فيما يمكن ، وألا تحاقق في نظريات خيالية بحتة لا تمت إلى الواقع بصلة ، وما ضاعت المجهودات العقلية - فلسفية كانت أم علمية - إلا بسبب بحث أصحابها في تخيلات بعيدة عن الواقع ، أو كان تحقيقه أقرب إلى الاستحالة منه إلى الإمكان .

ولهذا فإنني حين وضعت هذا المنهاج ؛ كنت أفسر في كل نقطة من نقاطه وأبحث فيها من حيث مدى إمكان تنفيذها ، فما وجدته غير ممكن التنفيذ لم أضعه في بحثي ، نعم ، قد يبدو بعضها صعباً إذا أخذناه كوحدة مستقلة . ولكن عند ما نعتبره جزءاً من كل مع ترتيبه بين أجزائه ، فإننا لا نستبعده عند ذلك عن مجال التطبيق .

وقد عقدت هذا الفصل من أجل بيان وسائل تنفيذ هذا المنهاج الذي أوضحته في الفصول السابقة ، لأنني لو لم أرسم هذه الوسائل لكان من الممكن أن يرى القارئ أن تنفيذ ذلك غير ممكن .

هذا وقد وجدت (بعد بحث طويل) أهم الوسائل ثلاث وفي مجال تطبيق هذه الوسائل يجب تطبيقها تدريجياً بالترتيب فالأول ثم الثاني ثم الثالث ويجب ألا نبدأ بالثاني قبل الانتهاء من الأول وهكذا .

وفيما يلي هذه الوسائل أذكرها بالترتيب الذي يبدأ بالأولى فالأولى .

إنشاء أكاديمية إسلامية

كيفية تكوينها :

تتكون هذه الأكاديمية من مجلس عمومي يختار أعضاؤه من أبرز العلماء الموجودين في العالم الإسلامي .

وتتكون لها فروع في كل قطر من الأقطار الإسلامية ، يختار أعضاء كل فرع من أبناء ذلك القطر الذي يكونون فيه ، ويكونون في نفس الوقت أعضاء في المجلس العمومي الأكاديمية إن أمكن ، وإلا رؤساؤها على أقل تقدير ، وبذلك تتكون هذه الفروع حلقة اتصال بينها وبين الشعوب الإسلامية ، فتتقل القضايا والمشاكل الموجودة فيها إلى الأكاديمية لبيان حكم الإسلام فيها ، وترجم كل أعمالها إلى لغات شعوبها .

ويكون لها أيضاً رئيس يختاره المجلس من بين أعضائه بالانتخاب كما يكون لها مقر رئيسي يختاره مجلس الأكاديمية في أحد الأقطار الإسلامية ، حيث يراه مناسباً من حيث تأمين اقتصادياتها ، وإتاحة الفرصة لنجاحها في مهمتها .

تمويلها (نفقتها) :

من الممكن أن تقوم دولة من الدول الإسلامية بدفع المبالغ التي تحتاج إليها وإذا لم تقم فمن الممكن جمع تكاليفها المالية من الشعوب الإسلامية ، وأما نفقات فروعها فكل قطر يتحمل نفقة الفرع الموجود فيه .

ومهما كان من أمر فإن المسألة المالية ليست من المشاكل العويصة في نظري بل هي بالنسبة لغيرها تعتبر من أسهل المشاكل التي سوف تقابلها ؛ ذلك أن هذه

التكاليف لا تكون باهظة تعجز عنها أية دولة من الدول الإسلامية .

وظيفتها:

تنحصر وظيفتها في الكشف عن جوهر الإسلام ، بعد استخلاصه من الشوائب ثم وضعه في صيغة وإطار جديدين ، وبيان حكم الإسلام لجميع القضايا الراهنة في الوقت الحاضر وفي كل هذا تسير وفقاً للمنهج الذي رسمناه في الفصول السابقة ، ثم ترجم جميع الكتب التي أصدرتها إلى لغات الشعوب الإسلامية عن طريق فروعها الموجودة في كل قطر .

ولسكى تستطيع أن تقوم بهذا الدور كاملاً ، ولتكون أعمالها مقبولة لدى الشعوب يجب توفر الشروط الآتية فيها :

أولاً : أن تتوفر في جميع أعضائها الكفاءة العلمية ، وليس من الضروري أن يكون عالم الدين فقط ، بل ينبغي أن يتعاون علماء الدين مع علماء الاقتصاد والاجتماع والسياسة والقانون ؛ لتكون هناك دراسة مقارنة أيضاً ، ولكن من الضروري أن تكون جميع الأحكام الصادرة منها في هذه المجالات أحكاماً إسلامية .

ثانياً : يجب ألا يكون هناك تأثير خارجي في أعمالها وأحكامها .

ثالثاً : أن يسود فيها الاتجاه العلمي والبحث وهذا يتطلب عدم الانحياز لأي مذهب من المذاهب الإسلامية والتحرر من التعصب لأي فكرة أو طائفة قبل إصدار حكمها الأكاديمي عليها .

أهميتها:

إن إظهار روح الإسلام وفلسفته وبيان حكمه على جميع الأحداث والقضايا الراهنة على النحو الذي بيئته فيما سبق ووضعها في إطار جديد بلائم عقلية ومقتضيات العصر الحديث يمثل أهم شيء في هذا المنهاج غير أن القيام بهذه المهمة كاملاً لا يمكن لأحد اليوم ، مهما كان عالماً مجتهداً ولو استطاع فرضاً ، فإن

تعبيره وآراءه الخاصة حول المشاكل المحيطة بنا اليوم لا يؤخذ مأخذ القبول في جميع الأقطار ولا تكون لرأيه قوة يفرض نفسه على جميع الأقطار الإسلامية .

الأمر الذي جعلني أرى تطبيق هذا المنهج عن طريق شخص واحد مستحيل أو قريب من المستحيل .

ومن أجل هذا رأيت خير طريق لهذا هو تنفيذ ذلك عن طريق الأكاديمية الإسلامية .

فإننا وإن لم نستطع أن نعتبر على مجتهد واحد من بين هؤلاء العلماء إلا أن اجتماع هؤلاء على رأى والقيام بعمل موحد يكون أقوى وأوثق من رأى مجتهد واحد .

وإذا حصل اختلاف بين هؤلاء حول موضوع ما — وهذا بلا شك ينتظر وقوعه — فإننا عند ذلك نأخذ برأى الأكثر ومن غير شك في أن الدور الذي ستأعبه هذه الأكاديمية سيكون كبيراً وهاماً في حياة الأمة الإسلامية ، لا يمكن القيام به بغيرها بأى حال من الأحوال .

إمكان تكوينها :

وللاستدلال على إمكانية تحقيق مثل هذه الأكاديمية نسوق دليلين : الأول : عقلي ، والآخر : واقعي .

أما الدليل العقلي : فإن العقل لا يستبعد تحقيق مثل هذه الأكاديمية بل لا يرى فيه صعوبة كبيرة لأن كل الشروط التي شرطهاها معقولة .

وأما الدليل الواقعي : فأقربه إلينا إنشاء مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ولا ينبغي أن يفهم أن الأكاديمية ستكون على غرار مجمع البحوث إذ أن هناك فروقاً كبيرة بينهما .

أولها وأهمها : الفرق المنهجي ؛ فإن منهجه ليس كمنهجنا هنا .

وثانها : إنشاء فروع لها في الأقطار الإسلامية ؛ وليست للجمع فروع .
وثالثها : أن الكفاءة العلمية غير متوفرة في كثير من أعضاء الجمع وإنما أتخذ
الجمع كدليل واقعي لإمكان تكوين الأكاديمية من حيث إنه استطاع أن يجمع
أعضاء من الأقطار الإسلامية المختلفة واستطاع أن يعقد بهم مؤتمرات متعددة .
هذا وتوجد هناك أكاديمية للمسيحيين ؛ فلماذا لا ننشئ نحن للمسلمين .

تعليم الإسلام في مجال التعليم والثقافة

ليس تكفي أبداً إعادة صياغة المبادئ الإسلامية ووضعها في إطار جديد وفقاً
للنهج المرسوم بواسطة الأكاديمية الإسلامية إذا لم تدرس هذه الكتب التي
تصدرها الأكاديمية وتعلم في المجالات الثقافية ؛ لأنه بغير ذلك كأننا لم نفعل شيئاً
سوى أن عبرنا عن الإسلام تعبيراً صحيحاً ، ووضعناه في ثوب جديد يناسبه ،
ولكن ما الفائدة إذا لم يقدم هذا العمل للجيل الناشئ ، ولم تفهم هذه الحقائق .
وهذا لا يمكن إلا إذا أدخلناه في مجال التعليم ، ونشرناه في المجالات الثقافية العامة .

إذن فإن إدخال الإسلام في مجال التعليم ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها بأي
حال من الأحوال إن أردنا أن نكيف حياتنا وفقاً للمفاهيم الإسلامية ومبادئ
الإسلام العامة .

ذلك أنه ليس من الحكمة مطالبة أناس بتطبيق مبادئ لا يثقون بصلاحياتها
للتطبيق ، أو يثقون ولكنهم يرون أن غيرها أصلح منها وأجدى وأكثر ملاءمة
لروح العصر وعقليته .

إننا إن فعلنا ذلك فلن تجدى مطالبتنا شيئاً ولن يستجاب لها أية استجابة .

وإذا حاولنا تطبيقه بالقوة فإن تطبيقه يذتهى حيث تنتهى القوة ، فالقوة لا تستطيع أن تكره الناس دائماً وأبداً على الخضوع للقوانين والمبادئ التي لم تتخذ مكانها في قلوبهم ، فهم في هذه الحالة يطبقون المبدأ عند ما يرون القوة ماثلة أمامهم ، وإذا أمنوا منها في مكان ما فيتركونه وراء ظهورهم ويفرون منها فرار المظلوم مما يكرهه .

ولاخير في تطبيق مبدأ ما ؛ لم يطبقه الناس أفراداً وجماعات في كل زمان ومكان يطبقونه من أنفسهم لا بقوة قاهرة عليهم ، أما عند ما يؤمن الإنسان بمبدأ ما إيماناً صادقاً ويتشبع به قلبه وروحه إذا آمن به بأنه خير مبدأ وأصلحه لخير المجتمع ، فعند ذلك يطبقه في كل حين سواء أمن من سطوة الحاكم أو لم يأمن وسواء وجد الحاكم أو لم يوجد قط ويصبح كل فرد في المجتمع حارساً على مبادئه محافظاً عليها أينما كان وحيثما وجد .

ولاسبيل إلى هذا إلا بتعليم الجليل المبادئ الإسلامية الصافية من كل الشوائب وإقناعه عليها بأن هذه المبادئ أصلح وأسمى من غيرها ، وهذا الإقناع غير ممكن في نظري إلا إذا سرنا في تعليمنا وفقاً للمنهج الذي رسمناه .

وبذلك سيدخل الإسلام في مجال الحياة الواقعية ، ويدخل الناس بطبيعة الحال في الحياة الإسلامية .

قد يقال إن هذا المنهج ، منهج بطيء يحتاج إلى وقت طويل . حقاً صحيح ما يقال ، غير أنه لا يعتبر عيباً في المنهج في نظري . ذلك أن هذا المنهج بالنظر إلى النتيجة التي تترتب عليه : يعتبر أصح منهج وأسلمه لأنه منتج إنتاجاً نافعاً .

والمهم في المنهج هو الإنتاج أو الوصول إلى الهدف كما أن النتيجة التي يؤدي إليها كفيمة بالبقاء ؛ لأنه يعمل عمله بالقلوب لا بالقوة الخارجية .

هذا وينبغي أن نكون على حذر تام من الأعداء عند تطبيق هذا المنهج . ذلك

أنهم لا يريدون أن يعود المسلمون إلى دينهم ويكرهون الإسلام أشد الكراهة ، لا يريدون أن يعودوا إلى دينهم الصحيح . لأن الإسلام إذا عاد إلى الحياة بمفهومه الصحيح فإنه ولا بد أن يدفع عجلة التقدم في البلاد الإسلامية إلى الأمام بخطوات سريعة ويمد إلى هذه الشعوب بالقوة والحياة ، والانطلاق ، ويخلق في نفوسهم العزة والكرامة لا يخضعون لمطامع أعدائهم بأى حال من الأحوال مهما كلفهم ذلك من تضحيات . فهم يبيعون كل غال عندهم من أجل المحافظة على حرياتهم وسلامة أوطانهم ، والاعتزاز بمبادئهم وثقافتهم .

فكم من دعوات الإصلاح قامت في الأقطار الإسلامية فإذا بالاعداء يقفون أمامها ، ويخلقون في طريقها مشكلات عويصة : مشكلات فكرية وسياسية ، واقتصادية .

ولا ينبغي أن نغفل أيضاً عن عملاء الأعداء الذين يعيشون في المجتمع الإسلامي ، إذ أن الاستعمار ينسلك أحياناً بزعماء الإصلاح بواسطة هؤلاء الذين يظهرون أنفسهم بأنهم من أتباع الإصلاح فإذا بهم يعملون ضدّهم من خلف الستار

وهكذا يجب أن نحترز من كيد أعدائنا ولا نهتمّ بالبلبلّة التي يحاولون إثارتها ليقفوا أمام الإصلاحات . وأن نشق دائماً بأنفسنا ونعتمد عليها في تقدمنا والإصلاحات التي نحاول القيام بها سواء كانت إصلاحات دينية أم علمية . قد عرفنا زواياهم أنهم لا يريدون بنا الخير مهما أظهروا من الصداقة وقدموا من المساعدات فإنهم إنما يقدمونها إما ليشتروا بها حريتنا أو ليمتصوا خيرات بلادنا .

ولست أقصد أن نعلن العداوة ، وأن نقطع علاقاتنا معهم ؛ وإنما أريد أن أقول : إنه لا يصح أن نعتمد عليهم في كل شيء ، وأن نكون دائماً في بقعة حيال مؤامراتهم ودسائسهم الخفية .

وكما ينبغي أن نحترز من هؤلاء : ينبغي أن نحترز أيضاً من العقلية الجامدة الموجودة في المجتمع الإسلامي التي لا تفهم الدين على حقيقته ولا تسترشد بنور العلم

والمعرفة في حياتها المعاصرة . وتجعل الدين أداة للتواصل والتخلف في الحياة الاجتماعية ، بدلا من أن يكون مصدراً للطاقة والقوة فيها .

قيام الدولة بحماية الإسلام

وهذه الوسيلة ضرورية أيضاً من الضرورات لتطبيق الإسلام في مجال واقع الحياة ، ذلك أن الإسلام بدون دولة : لا تكتمل سلطته على الأمة ، ولا تشمل سطوته على جميع أفراد الجماعة ، لأن الناس لا يستون في التمسك بالإسلام ولا الإيمان به .

ولهذا فإن روح الإسلام مهما سادت وسيطرت على عقول الناس ، وقلوبهم ، فلا يخلو المجتمع من ضعاف الإيمان ومن يضيقون بقيود الأديان ، ولا سيما الإسلام الذي يحد دائماً من حرية الأفراد الشهوانية ، ونزواتهم الفاسدة ، ويقف أمام الاتجاهات المنحرفة ، فإذا لم يوجد هناك من يؤدب هؤلاء ويعاقبهم ويمنعهم من هذه الاتجاهات المنحرفة فلا بد أن ينشأ هناك صراع في داخل المجتمع الإسلامي بين الخيرين والأشرار ، بين المتقين والمفسدين ، بين المستقيمين والمنحرفين .

ولا شك أن وجود الاتجاهات المختلفة والصراع المبدئي الظاهر في مجتمع ما : يؤخره عن التقدم ، ويثبط الهمم ، ويقلق راحة الجماعة .

أما إذا اتخذ الإسلام مبدأ في الدول الإسلامية وسارت على هداه ، وصانته من أيدي اللاعبين به ، وعاقبت الخارجين عليه ؛ فلا بد أن تختفي هذه الاتجاهات المنحرفة وذلك الصراع القائم بين هؤلاء وأولئك .

وبذلك يكتسب الإسلام قوتين : قوة روحية ، وقوة مادية ، فن لم تزجره

القوة الروحية عن الانحراف والفساد، تزجره القوة المادية ، ولهذا قال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه « إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ،

ولهذا جعل الرسول - صلى الله عليه وسلم - وخلفاؤه من بعده - رضى الله عنهم - الإسلام والدولة متلازمين لا يصح فصل أحدهما عن الآخر في المجتمع الإسلامى ، وإذا صح فصله في الأديان الأخرى فلا يصح في الإسلام ؛ لأن الإسلام ليس نظاماً روحياً فقط وإنما هو نظام روحى واجتماعى معاً ، إن الإسلام ليس عبارة عن عبادة وأخلاق : كالمسيحية واليهودية وإنما هو عبادة وأخلاق ونظام حياة على حد سواء .

جاء الإسلام لينظم المجتمع من جميع الجهات ، ولكن الذين يجهلونه يظنونه كالأديان الأخرى . والذين فصلوا الدين عن الدولة ومن ينادى بذلك قد تأثروا بالاتجاهات الغربية التي رأت أن المسيحية غير قادرة على تنظيم المجتمع لأنها خالية من المبادئ السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وإذا كان يقول بعضهم : إن النظريات الإسلامية المتعلقة بتنظيم الشؤون الاقتصادية والسياسية والإدارية - غير كافية ، فإنهم لم يتدبروها بدقة وإحاطة ولو أنهم تدبروها لعلوا أنها كافية ولعدلوا عن قولهم هذا .

إن النظريات الإسلامية قد حددت تلك الجوانب تحديداً عاماً .

وليس من الضروري أن يحدد جميع القوانين الفرعية الداخلة تحته فإن هذه الأمور متروكة للسياسة يحدونها تحت المفاهيم العامة المحددة - وفقاً لحاجة الناس ومقتضيات الظروف الموجودة من عصر إلى عصر - ولا ضير في هذا طالما أنها مستمدة من روح الإسلام ونظرياته العامة .

بل إن قلة النظريات تساعد على مساندة التطور الطبيعى للبشرية ولو أن كل جزئية من الجزئيات حددت في عصر الرسول ومنع كل تطور يحصل في العصور التالية بحجة أنه لم يحدث مثله في عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - لو حرم

هذا لما أمكن تطبيق الإسلام في العصر الحديث لأن هناك حوادث كثيرة لا يمكن أن نجد مثلها في العصر القديم من حيث الحوادث نفسها .

من هذا كله يتبين لنا أن الدولة ضرورة للإسلام لا غنى عنها لحمايته من أعدائه ومن الذين يتخذونه وسيلة لمآرب أخرى ، ولتطبيقه في مجال الحياة ودوام تطبيقه فيها ، وأنه بدون حمايتها : يبقى كاليتيم بين أهله وأبنائه ووطنه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

خَاتَمًا

والآن وقد انتهى الكتاب ولم يبق لي كلمة أقولها هنا سوى أن أحمد الله . وأشكره على توفيقه لإيادي في كتابة هذا الكتاب ، وعلى هدايته لي إلى هذا المنهج الذي طالما قد بحثت عنه مدة طويلة ، فقد كنت أبحث عنه منذ أن بدأت أفهم روح الإسلام ومشكلات المجتمع الإسلامي . ومشكلات الإنسان في هذا الكون ومعالجة الإسلام لهذه المشكلات معالجة حاسمة .

كما كنت أتأمل في الأسباب التي أدت إلى تشويه روح الإسلام ، والعوامل التي أدت إلى إبعاد المسلمين عن الحياة الإسلامية ، وكيف نستطيع إزالة تلك الأسباب وإظهار جوهر الإسلام ، وكيف نستطيع أيضاً إعادة روح الإسلام إلى نفوس المسلمين .

بعد كل هذا التفكير والتأمل في كل هذه النواحي : اهتديت إلى طريقة لمعالجة كل هذه القضايا وإلى منهج واضح يرسم لنا طريقاً واضحاً وقد استرحت له ووثقت به ، وحاولت بيانه بإيجاز في هذا الكتيب بقدر استطاعتي ومقدرتي .

وإني لأسأل الله أن يوفقنا في تحقيقه وتطبيقه حتى يتخذ الإسلام مكانته اللائقة به بين أبنائه . كما أسأله تعالى أن يجعل ما بذلته من جهد في سبيله خاصة لوجهه !

وآخر دعواى « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا
إمراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا
واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين »

قد انتهيت من هذا البحث فى ١٥/٨/١٩٦٧ .

المراجع

المؤلف	اسم الكتاب
	القرآن الكريم
الدكتور محمد البهي	١ - الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي
د د د	٢ - الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي
الدكتور محمود قاسم	٣ - الإسلام بين أمسه وغده
د د د	٤ - في النفس والعقل لفلسفة الإسلام والأغريق
لابن رشد	٥ - منهاج الأدلة في عقائد الملة
محمد أسد	٦ - منهاج الإسلام في الحكم
الدكتور محمد يوسف موسى	٧ - الإسلام وحاجة الإنسانية إليه
د د د	٨ - الإسلام والحياة
نديم الجسرى	٩ - قصة الإيمان
.....	١٠ - كتب الأحاديث
الدكتور أحمد شلبي	١١ - التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
عبد القادر عوده	١٢ - التشريع الجنائي في الإسلام مقارناً بالقانون الوضعي
جون كلوفر موسما	١٣ - الله يتجلى في عصر العلم
الدكتور محمد ضياء الدين الريس	١٤ - النظريات السياسية الإسلامية
الأستاذ محمد الغزالي	١٥ - ليس من الإسلام
ابن سينا	١٦ - رسائل ابن سينا في الحكمة والطبيعات

المؤلف	إسم الكتاب
عباس محمود العقاد	١٧— الفلسفة القرآنية
الاستاذ رينولد ، نيكولسون	١٨— في التصوف الإسلامى وتاريخه
الدكتور محمود قاسم	١٩— المنطق الحديث ومناهج البحث
الدكتور يحيى هويدى	٢٠— محاضرات فى الفلسفة الإسلامية
ابن رشد	٢١— فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال
الدكتور زكريا إبراهيم	٢٢— مبادئ الفلسفة والأخلاق
محمد طلعت زهروى وغيره	٢٣— دراسات فلسفية
اتيين دينيه (ترجمة الدكتور عبد الحلیم محمود)	٢٤— محمد رسول الله
الإمام القشيري	٢٥— الرسالة القشيرية
الإمام الغزالي	٢٦— المنقذ من الضلال

فهرس

الموضوع	الصفحة
إهداء	٥
تقديم : للدكتور عبد الحليم محمود	٧
تقديم : للأستاذ ابن الخطيب	١١
تمهيد	٢١
مقدمة	٢٣

الفصل الأول

حاجتنا إلى الإسلام كمنهاج للحياة	٢٧
الإسلام منهاج إلهي خالد للحياة	٢٩
جانب العقيدة	٣٢
الجانب الأخلاقي	٣٦
جانب العبادة	٣٨
الجانب القانوني وميزته على القوانين الأخرى	٤٢
فلسفة الإسلام في الحياة	٤٦
الروح وحقها في الحياة الإسلامية	٥٠
العقل وحقه في الحياة	٥٢
الجسم وحقه في الحياة	٥٥
حقوق الفرد والمجتمع	٦٠

الفصل الثاني

العوامل التي أدت إلى تشويه روح الإسلام	٦١
السياسة	٦٤

الصفحة	الموضوع
٦٤	سياسة المسلمين
٦٨	سياسة المستعمرين
٧١	سياسة المستشرقين
٧٧	الفلسفة
٨٦	اختلاف طبيعة الدين وطبيعة الفلسفة
٨٩	الطرق الصوفية
٩٤	موقفنا من هذه الطرق
٩٦	فوضى التأويل

الفصل الثالث

١٠١	منهاج إظهار جوهر الإسلام وعرضه في إطار جديد
١٠٤	بيان طريقة الإسلام في إحياء الإيمان وعاطفته
١٠٦	وضع الإسلام في إطار جديد
١٠٧	لمبراز النظريات الإسلامية في كافة المجالات
١٠٩	تميز السنة التشريعية من السنة غير التشريعية
١١١	إظهار فلسفة الإسلام
١١٢	وضع المبادئ الإسلامية على طريقة التقنين
١١٤	بيان أن الإسلام يهذب الوقائع ولا يقف أمامها سلبياً
١١٦	تحرير المفاهيم الإسلامية من الخرافات والقصص الإسرائيلية
١١٧	تعميد موقفنا من تفسير الآيات السكونية بالنظريات العلمية
١٢٠	بيان كفاية الإسلام للملاحقة التطور

الفصل الرابع

١٢٣	وسائل تنفيذ هذا المنهاج الحديث
١٢٦	إنشاء أكاديمية إسلامية
١٢٩	تعليم الإسلام في مجال التعليم والتثقيف
١٣٢	قيام الدولة بحماية الإسلام
١٣٥	خاتمة
١٣٧	المراجع

هذا الكتاب

ما من شك في أن الإسلام — الذى هو دين الفطرة ؛ الذى ارتضاه الله تعالى لعباده — قد أهمله ذوهه ، وأضاعه حفظته ؛ مكتفين بالتغنى بعظمته — بعد أن داسوها — وبمحسن أنظمته — بعد أن وأدوها — فأصبح غريباً في دياره ؛ في الوقت الذى تبحث فيه الأمم الأخرى عن شفاء لأدواتها — التى تعاطمت — وعلاج لمشكلاتها — التى تفاقمت — حتى طرقتوا — في بحثهم — أبواب الإسلام ؛ متلبسين الخلاص عن طريقه 1

والإسلام — وحاله كما وصفنا — أصبح في حاجة إلى منهاج جديد ؛ يلتزمه حماه ، ويسير عليه دعائه .

وهذا الكتاب — رغم صغره — قد أبان لنا الطريق الواضح ؛ الذى يجب السير عليه في الدعوة إلى الإسلام في العصر الحاضر ؛ وإزالة ما ران على ماضيه المجيد العطر ؛ وما يجب أن يكون عليه المسلمون في حاضرهم ومستقبلهم .

والكتاب في معالجته لهذه الأسباب — قد سار على منهج خاص ؛ لم يسبق إليه . فهو بذلك يقدم منهجاً حديثاً ، وتفكيراً جديداً ؛ في قضية الدعوة إلى الإسلام في عصرنا الحاضر . كما قدم منهجاً لإظهار جوهر الإسلام وعرضه عرضاً جديداً . وقد أعطى لنا الكتاب صورة واضحة لفلسفة الإسلام ؛ كمنهاج خالد للحياة الإنسانية . وأوضح مدى حاجة البشرية إلى هذا المنهاج ، وهذه الفلسفة .

وقدم الكتاب ؛ وسائل تنفيذ هذا المنهاج ؛ بعد ترجمته إلى واقع الحياة .

كما أبرز لنا قيمة فلسفة منهاج الإسلام ؛ كطريق وحيد لإسعاد البشرية ؛ بين سائر الفلسفات الأخرى التى يزعم أربابها ؛ أنها منهاج كفيلة بإسعاد الإنسان في هذه الحياة ؛ في حين أنها لا تزيد إلا تعاسة وشقاء وبؤساً .

وأبان الكتاب ؛ أهم العوامل التى شوهدت روح الإسلام ومفاهيمه ، وصبغت جوهره غير صبغته ، وأزالت معالم بهائه وجماله ؛ حتى بدا للناس مبتدلاً ؛ ينظرون إليه نظرة الاحترار والازدراء .

فكان لا بد للإسلام — الغيور على دينه — أن يبحث عن منهج يخلص دينه الحق من هذه العوامل وآثارها ؛ فكان هذا المؤلف ، وكان هذا الكتاب 1